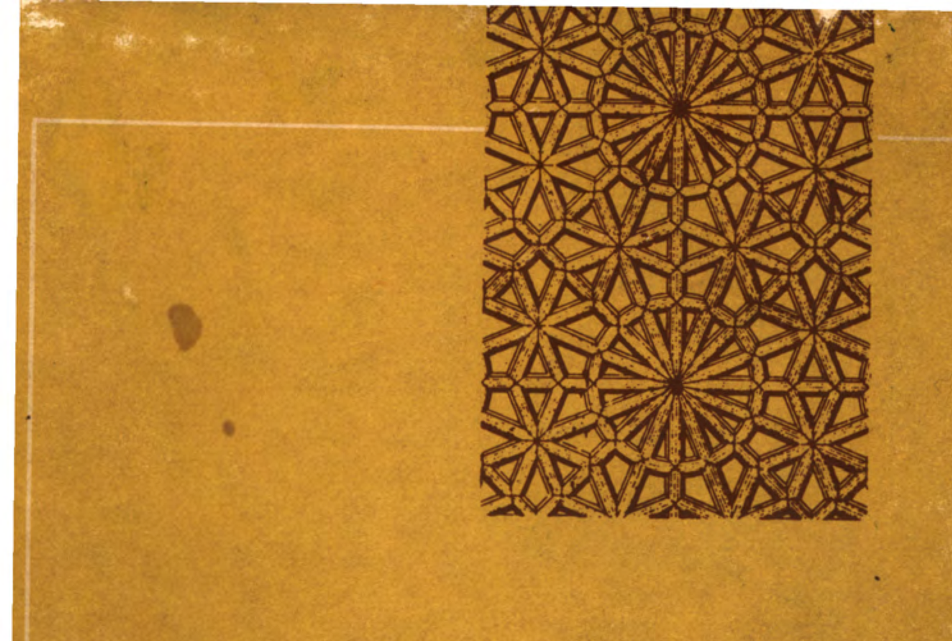


الأديان في كفة الميزان

محمد فؤاد الهاشمي

دار الحرية


http://al-maktabeh.com

الأديان في كفة الميزان

الدكتور

محمد فؤاد الهاشمي

الناشر

دار الحرية

١ ميدان السيدة زينب - القاهرة

ت ٩٠٣٧٦ ص ب ٩٤٧ القاهرة

مقـــــدمة

فى جلسة مع صديقين فى مكتب احدهما ، وكنا نطرق من الحديث عامة وخاصة ، حتى دق التليفون فتناول احـــد الصديقين السماعة ، ودار الحديث بينه وبين المتحدث من الجهة الاخرى ، وكان كانه بين تلميذ واستاذه ، حيث كان صديقى يتحدث فى ادب جم مما جعل ثانى الصديقين يســـأل عن المتحدث الذى لم يكد يسمع اسمه حتى بدت على وجهـــــه امارات عن مدى احترامه وتقديره للاسم مما اثار فضــــولى فسألت عمن يكون هذا المتحدث الذى حاز اجلال صديقى ، فرد احدهما يقول : المتحدث كان متهما فى احـــدى القضايا وكنت حينذاك القاضى الذى حكم عليه بالسجن خمس سنوات . وكنت مطبقا لاحكام القانون حيث لم يتمكن من اقامة الدليل على براءته من تهمـــة عرفت فيما بعد انه كان بريئـــــا منها ، وقد عرفت ذلك بعد ان خرج من الســـجن واعتزلت القضاء ، ثم اتت الصـــدفة التى جعلت كلا منا صديقا للآخـــر بما يشبه المعجزة ، ثم استرسل صديقى فى حديثه عن صديقه وقال :

عرفت المتحـــدث متدينا عارفا لدينه ، عالما بقواعده واسراره ، مطبقا لنصوصه واحكامه ، غيورا على الدين ، لا يخاف فى الحق لومة لائم ، مما كان له الأثر فى اخلاقه ، فقد جمع بين عذوبة الحـــديث وحسن المجـــاملة ، التى لم تكن على حســـاب الدين ، مهذبا شـــديدا عندما يمس ماس كرامة الدين ، واستطرد فى حديثه : لقد جعل الدين من الذين يفهمون اصوله اناسا يختلفون فى مشاربهم عن باقى البشر ، فالمروءة والشهامة والحلم من اهم صفاتهم ، ثم تحدث عن نفسه :

كنت لا اعرف عن الدين شيئا ، كما كنت اظن ان الدين بدعة مبتدعة او خرافة من الخرافات ، او رجعية متاصـــلة فى نفـــوس معتنقيـــــه ،

ثم عرفت صديقى المتدين فعلمت ما لم اعلم عن الدين ، وعرفت الله فيه ، وتطورت كراهيتى للدين حبا ، وتحول بغضى للمتدينين عشقا ، وهديت الى صراط الله العزيز الحميد ، فتبــدلت انسـانا غير الانسـان الأول ، اصبحت اخشى الله وأراقبه فى كل غدوة وروحة .

وهنا بدأت احس بالرغبة الملحة فى الاشتراك فى الحديث ، مع انى كنت زاهدا فيه فى بدء الجلسة ، فتحدثت عن التدين والعقيدة ، واثر الدين على الضمير الانسانى ، وما يحدث من تطهير وجدانى ، وكيف أن الانسان متدين بفطرته ، وأن العقيدة بالالوهيات هى اسبق العقائد التى غرست فى الانسان يوم خلقه .

قصـــــة الخليقـــــة :

فقد خلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه ، وليس فى الناس من يجهل قصـــة آدم عليــه الســلام ، الذى خلقــه الله وامر الملائكة أن يسجدوا له ، « فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين » ، فغضب الله عليــه وطرده من رحمتــه ، وقال يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة ، وحذرهما أن يفتنهما الشيطان فيخرجهما من الجنــة ... ولكن الشيطان استطاع أن يستدرجهما الى المعصية فأكلا من الشجرة ... وما لبثـــا أن ادركهما النــدم ، وارادت المشيئة الالهية أن يغفر الله لهما ، ولكنهما اخرجا من الجنــة الى الارض حيث هبط الشيطان ، واستخلف الله آدم وبنيه فى الأرض ، وكانت الملائكة تستشرف الى هذه المرتبة الرفيعة حيث أخبرهم سبحانه انه جاعل فى الارض خليفة ، ولكن آدم وبنيــه ذهبــوا بشرف هذه الكرامة لمــا ميزهم الله به من الأسرار والمواهب التى تؤهلهم لذلك .

فحادث ابنى آدم الذى قتل احدهما الآخر حقدا من القاتل على المقتول

وحســـدا له ، لأنه قدم قربانا لربه فتقبل منه ولم يتقبـــل من الآخر ، وبعد ان ارتكب القاتل جريمته لم يعرف كيف يوارى ســـوأة أخيـــه ، فاعتراه ندم ولو الى حين ، فبعث الله اليه غرابا ليريه كيف يوارى سوأة أخيـــه ، فنبش الغراب فى الأرض وتعـــلم الانسان كيف يوارى خطيئته التراب ، فيستيقظ فيه الضمير ويقع تحت وطأة العذاب الوجدانى .

ولست أقصد من سرد القصة علاجا مثل الذى طرقه الثعـــالبى فى عرائسه ، أو تتبعـــا للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار فى عرضه ، انما قصدت أن أخرج من القصة بمعانى تتفق والهدف من اخراج هذا الكتاب ، الذى قصدت به ان اضع الميزان وعلى كفته الأديان وضعية او سماوية وكيفية علاجها للانسان ومشاكله التى تتطور بتطور رقيه وحضارته .

العقيـــــــدة :

فمن قصـــة خلق الانسان وخروجه من الجنة ومؤهلاته من الأسرار والمواهب نشأت الطـــاعة والمعصية ، والسيئة والحسنة ، وتولدت فى الانسان صورته الحية ، وغمرت هيكله صـــورته المعنوية ، وفطر على ان يتطلع الى قوة أكمل من قوته ، ويبحث على قدرة أعظم من قدرته ، وعرف ان ادراكه محدود وانه فى حاجة الى ادراك يفـــوق ادراكه ، وان اسراره ومواهبه عجزت أمام اشياء ، فبدأت نفسه تستشرف الى جهة تملك اسرارا ومواهبـــه اسمى من اسراره ، ولذا نجـــد ان الانســـان دائما نزاع الى ان يشرئب ويتســـامى بنفسه ليطل على صورة معنوية اتم من صورته يدين لها بالخـــوف والحب والطاعة ، وهذه العـــاطفة هى أسبق ما غرس فى نفس الانسان من عواطف منذ خليقته ، ومعنى ذلك ان الانسان جبل على ان يكون ذا عقيدة فى صحة شىء او بطلانه ، او صحة شىء وبطلان آخر .

وكما ان الانسان جبل على حب الاحتفاظ بكيانه الاجتماعى وكمال

حياته الداخلية والخارجية ، مما دفعه الى الموازنة بين ما يعيش فيه من ظواهر طبيعية وما تتطلع نفسه اليه من حقائق تسود تلك الظواهر وتبسط سيطرتها الكاملة على تلك الظواهر ، وهذا يجبره على الاعتقاد بصحة جزء كبير من الحقائق الوجودية التى يزكيها ندبره فى الوجود او استنتاجه ، فلابد ان يكون مدينا بطبعه من حيث انه دائم الرغبة فى التسامى سواء كانت الرغبة شعورية او لا شعورية ، وحسبنا انه ينشد فى وجوده غاية ، ويستهدف فى حياته وما بعدها هدفا اسمى من اهداف الجسد ومراميه .

التـــامل :

وما دام الانسان يتطلع الى وجود غاية او الوصول الى هدف فهو معتقد بالطبع ، والاعتقاد وليد التطلع ، والتطلع وليد التأمل ، حيث لا يمكن أن يقال أن التأمل ناشىء دون أساس ، فالتأمل لا يمكن نشوؤه الا عن معتقد او لاجل اعتناق معتقد ، فقد يبدا الانسان مقلدا أبويه دون ادراك لحقائق الامور والمعتقدات التى يسيران عليها ، غير انه حين يشب ويتأمل فى حقائق الوجود ، يظهر له التأمل ما خفى عليه ان كان من اولى الألباب ، فتتولد عنده الرغبة فى البحث عن أدلة الاثبات والنفى ، فاذا اعتراه شك فى كنه شىء مما يعتقده وقام صراع خفى أو ظاهر بين عقله وعقيدته ، فانه يبدا استعراض المبادىء التى يقوم عليها اعتقاده ابتغاء ايجاد نتائج يؤيدها اليقين وبذا يرسخ يقينه فيما يعتقد او يشك ، ويكون هذا المأزق الحرج حيث انه يعز عليه أن يلغى دينه ومعتقده ، كما يعز عليه عقله ان يلغى ، ومن ثم يحاول المزج بينهما ، ثم يصدم بعقبة كؤود حين يجد ان هذا المزيج غير مستساغ ، لانه غير مستطاع أن يمزج بين الحق والباطل .

الشر والخـــير :

ومن المتامل عرف الانسان كيف يميز الخير من الشر ، وعرف انهما

صفتان متنافرتان لا يمكن ان تشـــارك احداهما الأخرى فى كيان مخلوق واحـــد وهذا ما يدل على ان الانسـان الاول فرق بين شـعائر الســـحر والشعوذة ، وبين شـعائر العبادة ، وكان هذا التمييز بداية لحلول كثيرة عالج الانسـان بها مشاكله ، ولمـــا كان الانسـان نزاعا الى التطور ، فقد ظل يتدرج فى مراقى الحضارة ، وتطور عقله ، ولكنه كان كل مرة يبحث عن القوة المسيطرة على الكون ، وهو جزء من الكون حتى عبد آلهة كثيرة متعددة حتى جاء حين من الدهر فعبد الهين ، أحدهما يرمز الى النـــور وسمى الآخر اله الظلام ، وأشـار الى النـــور بالخـــير ، فكان الهه اله الخـــــير ، وعبر الشر بالظلام فكان اله الظلام ، وهو اله الشر .

ورغم هذا التطور الادراكى لم يرض الانسـان به ، حيث أن النزعة فيه من بدء خليقته واضحة المعـــالم ، وذلك ما يدل عليه استغفار آدم وتوبته ، وندم ابنه الذى قتل وعجز عن أن يوارى سـوأة اخيه .

ومن هنا يمكن أن نقول ان نزعة التوحيـــد لازمته منذ نشـــأته وان كانت غير مبلورة أو ناضجة ، ولذلك تولدت عنـــده صفة عـــدم الاقتناع مما ينتج عنه أنه عرف أشياء سميت بأسماء وأصبحت ضمن نواميس حياته ، فالوهم والخيال والواقع والتكامل صفات اصـــبحت من أهم الركائز التى يعيش عليها الانسان ، وقواعد لازمة له فى حياته ، وعلى هذه الركائز والقـــــواعد بنى محور البحث ، ثم صـــــار البحث بحوثا ، وبذلك تعـــددت الآراء وكثرت الحلول ، وجد واجتهد الحكمـــاء وفقهاء الأديان فى تفسير الخير والشر على أساس تلك الركائز .

فمن قائل ان الشر وهم وخيال ، وانه عرض زائل يزول ويقـــوم على أنقاضـــه الخير ، وأن الشر الم موهوم ، والخـــير لذة موهومة ، ومن قائل يقول : أن الشر لا يناقض الخير ولكنه جزء متمم له فى الحياة ، اذ لا معنى للافطار بغير صـــوم ، أو للصلاح بغير طلاح ، ولا معنى

للعــزة بغير ذلة ، كما أن لا معنى للحياة بغير الموت ، ولا معنى للمعصية بغير طاعة ،ولا معنى للفــرح الا بالترح ، ولا معنى للجمال ما لم يكن هناك قبح ، وذلك ما يقال عنه بالتكامل .

ومن الذين بلغــوا مراتب فى هذه الأبحــاث الذين يؤمنــون بالواقعية ، وهم اقرب الى الحقيقة من غيرهم ، حيث يصلون الى حلول تبلغ مرتبــة تريح عقل الانسان ، وان تفرعت به بعــد ذلك الى طرق اخرى وكثيرة فى البحث والتنقيب عن الحقائق التى يحاول الانســـان جادا البحث عنهــــا ، فالمخترع عندما يفكر فى اختراعه يكون قد بنى تفكيره ، على اثر رؤية شىء مطبق فى حياته العملية ، أو عثر عليـــه بطريق الصــدفة ، ثم يبدأ العمل صــغيرا ، وربما كان الخيال رائده فى بادىء الأمر ثم يصدم بالواقع فيدخل عليـــه التحسينات والتطورات حسب الواقع ، ثم تنتهى التجارب وينتهى الادراك ويقف عند حــد معين تسمى الآلة بعــدها اختراعا ، ويتطور الزمن وتتطور الحضارة وتصبح الآلة عاجزة تمام العجــز أمام احتياجات البشر والتزامات الحيـــاة المتطورة،ثم يأتى مخترع فيخترع آلة تتمشى مع المدنية والحضارة،وهنا يكون ادراك اتم من الادراك الأول .

الديانات :

وكذلكَ أرادت حكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده ، وهو الذى اراد أن يتطور الانسان ويترقى ، فبسط رحمته على عباده بأن ارســل اليهم الانبيــاء والرسل هداة نبيــا بعد نبى ورسولا تلو رسول حسب احتياجات كل عصر وعقول البشر فى ذلك العصر ، وهؤلاء الرسل والأنبيــاء جميعا انما هم يمثلون اسرة واحدة ذات فروع وجــذوع ، وذلك هو واقع التاريخ ، كما ورد فى الكتب السماوية جمعــاء ، وجاء القرآن مصــدقا لتلك الكتب فاورد قول الله عز وجل « أم كنتم شــهداء اذ حضر يعقوب الموت ، اذ قال لبنيــه ، ما تعبدون من بعــدى ؟

قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الهـا واحدا ونحن له مسلمون » .

ومن أولئك الرسل والأنبيـاء الذين كان يبعثهم الله منـذ تاريخ البشرية حينا بعد حين كلما خبا نور الروح الالهى وراء أقذار البشرية والرموز الكهنوتية ، وكلما وضع مصباح الروح تحت مكيـال المـادة ، وطمست معالم القانون الآول ليقيمـوا منار الهدى وينعشـوا روح التعاليم الالهية، وينقذوا التوحيد من براثن الشرك والأساطير ، وهؤلاء الانبيـاء والرسل عددهم لا يحصى لأنه كبير جدا متوالى خلال الدهور والعصور ، ومن أخصهم واعظمهم الرسل المكرمون ، آدم ونوح وادريس وابراهيم وموسى وعيسى ومحمـد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام ، واولئك اولو العزم من الرسل .

والديانات كانت فى عهد مؤسسيها منار الهـدى ومدارسا للحب والسلام ، ومبعثا من بواعث طمأنينة القلوب ، وبعد أن مات مؤسسو الأديان سـار اتباعهم بسـيرة صاللة تناسب نوعا ما سـيرة هداتهم الأطهار ، وان لم تتفق معها تماما ، ثم قضيت عصور أولئك أيضـا ، وابتدأت عصـور مقلديهم الذين انحطوا عمن تسلموا منهم أمانة الدين والهـدى والايمـان والحق انحطـاطا هائلا فى جميع نواحى الحيـاة الروحية .

وهكذا انقضت عصورهم وقام على آثارهم غيرهم ، وجلهم يجتبى فى نفسه مجد العالم ، وان كانت أزياؤهم ونفوسهم تمثل المجد الروحى ، واصبح الدين مع سمو جوهره وحقيقة مصـدره قضايا كلامية لا تجـد لمسائلها وهوامشها المتسعة منطقا يبررها ولا ايمانا يسندها ولا عقـولا تقبلها ، وان كانت من أعز الحقائق فى أصولها .

وغير هؤلاء الرسل والأنبيـاء فقد ظهر حكماء وضعوا نواميس

وان كانت وضعية ، الا انها لا تبعد كثيرا من نواميس الاديان ، وان تخللها بعض الثغرات . وذلك سنة الانسان أنه لا يمكن ان يصل الى الكمال المطلق فيكون عمله ناقصا ، وكاد هؤلاء الحكماء أن يكونوا أنبياء ، وهم على كثرة عددهم ، ولكن لم يشتهر منهم واصبح له اتباع ومدارس ومؤمنون بحكمتهم وتقديسهم الا كرشنا ، وبوذا ، وعرمس وزورستر (زردشت) ، كما ظهر فلاسفة آخرون مثل طاليس وصولون ، وسقراط وابى قور ، وفيثاغورث ، وافلاطون ، وارسطوطاليس ، وكل هؤلاء يمثلون مدرسة واحدة تعمل لنشر تعاليم ومبادىء قريبة من التوحيد ، تعاليم ترقى الروح الى معارج القدس وتطهيرها وتصفيتها مما يشوبها من خبائث الصفائر الارضية ، وعلى ذلك فاننا لن نتعرض فى كتابنا هذا للأديان او نمسها الا بمقدار ما تنفض عن حقيقتها الجميلة غبار الرياء والنفاق والخداع والتصنع ، وتدفع عنها قول الالحاد وفحش السخرية والازدراء .

وانما اردت بكتابى هذا ان أوضح طريقة المبادىء والأديان فى علاجها للمشاكل المتعلقة بالانسان من الناحية الروحية والمادية ، ووقوفها بجانبه من مولده الى مماته ، كل دين على حدة وفى كل مشكلة . ثم يظهر أى دين من الأديان السماوية قد نظم حياة الفرد والمجتمع حتى يلجم المفترون على الأديان وتخرس ألسنتهم .

وان كنت سأبدأ بالتعرض للمبادىء الوضعية لكى يعلم من لا يعلم ان المبادىء الوضعية مهما بلغت حكمة واضعها فلابد ان تكون فيه ثغرات تكون عاملا من عوامل اندحارها وزوالها ، وانه لا يبقى الا من كان من قبل الله خالق الحكماء ومرسل الرسل والانبياء الذى يعلم حاجة عباده ، وما هو شر لهم وما هو خير .

والله الموفق الى سواء السبيل ...

المؤلف

محمد فؤاد الهاشمى

الباب الأول

الأديان والعقيـــــدة

تمهيـــــــد :

قبل التعــرض للأديان السماوية ومقام العقيــدة فيها ، آثرت التعــرض لبعض الأديان القديمة التى لم يرسل بها نبى أو رســول ، والتى لم يوصى بها من السماء ، وذلك لكى نتبين الوضوح التام والنقاء الفطرى الذى فطر عليه الانسان من توحيــد لله وعدم الشرك به لولا ان دخلت بعد ذلك الأديان فى طور الانحدار وما احدثه الكهنة والقـــواد الروحانيــون من بدع ورموز وطقوس حولت العبادة فيها الى شرك واشراك .

ومن اهم الديانات التى نتعرض لها :

١ ــ الديانة البرهمية .
٢ ــ الديانة البــوذية .
٣ ــ ديانة قدماء المصريين .
٤ ــ الديانة الصينية الكنفوشيوسية .
٥ ــ ديانة الكلدانيين .
٦ ــ الديانة الفارسية .
٧ ــ الديانة اليــونانية .
٨ ــ ديانة الرومان .

وبعد أن نوفى الغرض المقصود من تلك الديانات ، نخرج منهــا الى الديانات السماوية المشهورة كالديانة اليهودية والديانة المســيحية والدين الاسلامى . وليس المقصود من التعرض لتلك الديانات الا الحصول على ما يوصلنا الى الغرض المقصود من هذا الكتاب .

الفصـــل الأول

الديانة البرهميــــة

الله :

جاء فى احـــد فصول الفيدا ذكر الاله واسمه (برهما سباتى) حسب ما هو مكتوب باللغـــة السنسكريتية القديمة ومعناه « رب الصلاة » مجيب الدعاء ، المتصرف فى ملكوته السماوى والأرضى اله حق

اذن فالله عند قدماء البراهمة واحد لا شريك له سرى منـــه الروح فى جميع الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، وقد ورد ما يؤيد ذلك فى اسفار الفيدا وما ترجمته « أنا الله نور الشمس ، ضوء القمر ، بريق اللهب ، وميض البرق ، صوت الريح ، انا الأصـــل القديم لجميع الكائنـــــات ، منى الحياة لكل الوجود ، معطى الصلاح ، اول ، آخر حياة ، موت ، لكل مخلوق حى » .

عقيـــــدة البراهمـــة :

وتتلخص عقائد البراهمة فى بنود تدل على وحدانية الله ، وهـــذه هى البنود المهمة فى الموضوع :

١ ـــ اسم الاله الظـــاهرى (برهما ســـباتى) والاسم الخفى (زيوس) .

٢ ـــ الاله هو الأصل الأزلى الذى يستمد منه كل شىء وجوده ، لا تدركه الحواس وقد يدرك العقل بعض صفاته .

٣ ـــ ان الانســان حركة متغيرة مستمرة ، وروحه قبس من نور الله انفصل عنه الى اجل ينتهى ، ثم تعـــود اليه بعـــد انتهـــاء

الاجل ،و ذلك كالبخار الذى يصعد الى السماء ثم يعــود الى الارض امطارا تجرى فى الارض أنهارا .

٤ ـ غاية كل انسان فى الحياة الاتصال بالله والرجوع اليه .

كتب الديانة البرهميــة :

وكل هذه العقائد مكتوبة فى كتاب الفيــدا المقدس الذى لم يعرف حتى الآن بدء كتابة اسفاره ، وانما المحقق ان هذه الاســفار اقدم من التوراة، وتتألف أسفار الفيدا من أربعة اسفار هى : :

(أ) الريجا فيدا .

(ب) الساما فيدا .

(جـ) الباجورا فيدا .

(د) الأجارا فيدا .

وكتب اخرى مفسرة تسمى (دماندرا ماسترا) اى كتب الشريعة ، وكل التعاليم الدينية فى أسفار الفيــدا على غاية من البســاطة دون تعقيــد وتدعو جميعها الى توحيد الله .

فلاسفة وكهنــة الديانة البرهمية :

وأهم من تعرضوا لشرح أسفار الفيدا الفيلسوف الهنــدى « مانو » الذى قال عن الاله انه كائن بنفســه لا تصيبه الحواس المــادية ، بل يعــلم بالروح فقط ، و « كلوكا » الكاهن والفيلسوف ،وهو اشــهر مفسرى الفيــدا القائل : « ان المشتركين فى الاسرار مع تقــديمهم القــرابين لبعض قوى الطبيعــة المتعــددة لم يكونوا معتقــدين الا بربٍ واحد هو نبع كل عدل وحكمة ، المدبر الكل ، والمرتب لنظــام الكون ، ولا اسم له الا المستحق العبادة برهما » ، ومن الفلاســفة المصلحين « كرشنا » وكان من تعاليمه « أن الجســد زائل ، انما النفس الخفية عن النظر سرمدية » .

تعـــاليم الديانة البرهمية :

اهم التعاليم فى الأديان البرهمية القديمة تتلخص فى الوصـــايا العشر للدين البرهمى وهى :

١ ـ الكائن الالهى .

٢ ـ مقابلة الاسـاءة بالاحسـان .

٣ ـ القنـــاعة .

٤ ـ الاســتقامة .

٥ ـ الطهـــارة .

٦ ـ كبح جمــاح النفس .

٧ ـ معـــرفة الفيـدا .

٨ ـ اجتنـاب الغضب .

٩ ـ الصـــــبر .

١٠ـ الصــــدق .

واما ذبح الحيوانات وتحريم ذبح بعضها وغير ذلك من الاضافات ، فلم تظهر الا بعــــد زمن بعيــد حين وضعت الطقوس وتزايدت الرتب الكهنوتية ، ففرضت على الشعب ذبح بعض الحيوانات وتقديس بعضها أو تحريم اكل اللحوم بتاتا .

انحـــدار الديانة البرهميـــة :

انحدرت الديانة الهندية عندما كثر الكهنـــة الذين جعلوا للديانة أسرارا خفيـــة واسرارا ظاهرة ، فكثرت الرموز والطقوس والشعائر ، ومن هنـــا نشـــأ ما لم يكن اصـــلا فى الديانة البرهميـــة ، فنشـــا الثالوث الهندى المعروف وهو (برهما ـ فشنو ـ سيفا) .

فقد كانت العبادة فى الديانة الهندية القديمة قاصرة على اناشـــيد « الريجا فيدا » وهى اقدم اسفار الفيدا ، وكان الهنـــود لا يعـــرفون

الا الها واحدا تحت ارشاد العباد والحكماء المخلصين ثم ظهر الكهنة على مسرح الحياة فابتدعوا من الاسماء والمسميات ما لم يكن له اصل فى كتب الفيدا ، بل تعدوا وغيروا بعض معانى الفيدا ، ولنضرب مثلا على ذلك ان كلمة « ورترا » المستعملة فى كتب الفيدا المقدسة ، وكانت ترمز الى الروح الموكلة بالرياح الثائرة الهوجاء ، فقد اطلقوها واحلوا محلها كلمة « سيفا » التى وردت فى الثالوث الهندى .

ومن هنا يمكن أن يكون اليقين أن الثالوث الهندى بدعة من مبتدعات الكهنة واصبح بدل الاله الواحد آلهة ثلاثة واصبح الثالوث « برهما فشنو سيفا » على اعتبار أن فشنو وسيفا الهان وقوتان نشأتا عن برهما ، وقد فسروا الثالوث الهندى أن برهما هو الاله الخالق ، فيشنو هو القوة الحافظة ، أو الاله الحامى للخليقة ، وسيفا القوة التى تفنى وتعيد وتحول .

التعبد الحالى عند البراهمة :

اتسع نفوذ الكهنة فأنشأوا الامتيازات والاختصاصات ووضعوا نظام الطبقات التى نشير اليها دون بالشرح ، والطبقات عند الهنود أربع تقل الواحدة عن الأخرى فى المنزلة حسب الترتيب ، فجعلوا أرقى الطبقات احتراما وتجلة ومنحها الامتيازات التى لا يحق لغيرها المشاركة فى تلك الامتيازات طبقة البرهماتمان ، وهم الكهنة والعلماء ، ثم يليها فى المنزلة طبقة « الخاترياس » وهم رجال الحرب وحماة الأوطان ثم تلى بعد ذلك طبقة « البانيان » وهم الزراع والتجار ودنيا الطبقات هى طبقة السودراس وهم ارباب الحرف والمهن الدنيئة وهم المنبوذون .

وقد قصر الكهنة على انفسهم وعلى المشتركين فى الاسرار

« تلاميذهم » معرفة الحقائق العلوية وتوحيد الله وستروا الحقـائق عن الشعب ، مما جعـل الناس تلجـأ الى الشرك وتعدد الآلهـة ، مما أوجد فى نفوسهم اليأس من الخلاص فى حياتهم الحاضرة او المستقبلة ، حيث تعلم الهنـدى ان خلود الروح غير مدرك الا ان تصـل الى درجة النقـاء ، ولذا يكلف البرهمى نفسه أنواع الشـدائد والجهد فى العبادة فى حيـاته بما فوق طـاقته ، لكى يكفر عما وقع منـه من معـاصى ، او عما سيقع منه من ذنوب مقبـلة ، وهو دائم الكآبة والخـوف ، كثير الهموم ، لا امل له حتى فى الموت ، لأن الموت نفسه فى نظره ليس مخلصا من الحياة المقبلة .

الفصل الثاني

الديانة البوذية

قبل الاستطراد فى التحدث عن الديانة البوذية ، يجب أن نوضح أنه قبل ظهور الديانات الهندية ، واقدمها ديانة البراهمة كانت هناك ديانات سماوية ودعوات ربانية أتى بها انبياء من قبل الله عز وجل امثال شيث وادريس عليهما السلام ، ولما طال الأمد على القوم تعرضوا لتيارات مختلفة وعديدة حتى جاءت الديانة البرهمية ، فساروا عليها وآمنوا بها حتى بدا الانحراف الكهنوتى عن مبادىء تلك الديانة وكثرت المذاهب فى الهند وانتشرت الآراء وتعددت ، فانحرف اتباع البرهمية الى الوثنية وعبادة التماثيل وساروا خلف كل بدعة ، وبذلك كثرت الشيع وكثرت اتباع كل شيعة ، وفقد البراهمة روح ديانتهم ونسوها ، وانجرف الهنود انجرافا خطيرا مع التيار حتى وصلوا الى اخطر مراحل الوثنية حتى ظهر « ساكيامونى » أو سيزارا ساجوتاما ، المشهور باسم « بوذا » بدينه المبتدع .

والحقيقة البوذية ليست فى نفسها ديانة سماوية أو دين وضعى ولكنها مذهب فلسفى مشتق من الديانة البرهمية مع ادخال تعديلات لبعض القواعد .

تاريخ بوذا :

ولد جوتاما مؤسس المذهب البوذى فى منتصف السنة الستمائة قبل الميلاد وكان ابوه أمير يسمى « كابيلا فاستو » وسمى « سيزاراسا » أو ساكيا موتى جوتاما واسم ساكيا موتى يعطى معنى « المتبتل من عائلة ساكيا » وعاش عيشة ناعمة وتزوج فى سن التاسعة عشر .

كانت آمال جوتاما متجهة من صغره الى التكمل فى الاخلاق والعادات ، ولما بلغ التاسعة والعشرين من عمره واخذ يتلمل فى حالة بنى قومه وما وصلوا اليه من الذلة والمسكنة نتيجة نظام الطبقات الذى احدثه كهنة البراهمة ، بغية ابقاء الشعب على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا بهذه الوسائل للامساك بزمام الشعب والاستعلاء عليه من كل ناحية ، مما ادى الى انحطاط الشعب الهندى فعكف على عبادة الاشخاص والتماثيل والحيوانات .

فكر جوتاما مليا وظل يفكر حتى زهد فى العظمة الدنيوية ومجد العالم الزائل ، وكرهت نفسه ملذات الحياة ، ومن هذا التفكير بدات رغبته تبدو جلية فى الاصلاح ، فغادر بلاط أبيه وترك ناعم الفراش ورغد العيش بعد أن زهد فى الحياة الدنيوية وخرج تاركا زوجته وبيته غير مفكر ولا مبال الا لما عزم عليه ، فقد خرج الى الجبال والاحراش الكثيفة المليئة بالوحوش التى لم ترهبه ، بل انزوى يستهدى الفكر ويهذب الروح ، ويستطلع الغيب ، ويصهر جسمه الذى اخذ على النعومة فى بوتقة الشقاء الجسمانى والرياضة الروحية .

تجلى الوحى لبوذا :

ويروى انه بينما كان « جوتاما » جالسا فى ليلة من الليالى تحت ظل شجرة تين ، تجلى له النور وانكشف عنه الغطاء ، وعرف كثيرا من الاسرار ، وبذلك اطلق لقب « بوذا » اى العالم المستنير ، وعاد الى الناس بعد أن قضى ستة عشر سنة يسرح بالفكر ويتامل فى الكون وفى الملكوت ، عاد بمذهبه وبدا ينشر دعوته ومبادئه على الشعب ، وتبعه أتباع كثيرون آمنوا بمذهبه ومبادئه ، وظل اتباعه وتلاميذه متمسكين بدعوته حتى مات فى الثمانين من عمره واحرق جسده .

عقائد الديانة البوذية :

الديانة البوذية لا تشير الى اله خالق سوى « الترفانا » والترفانا معناها الاطلاق الطبيعى او المتساوى أو بوذا نفسه ، ولم تتكلم عن اله صراحة بخلاف الديانة البرهمية التى تقول ان هناك اله بل بوحدة ذلك الاله .

والذى لا يمكن انكاره أن بوذا نفسه لم يدع يوما انه اله أو ابن آلهة ، ولكن مبالغة اتباعه هى التى جعلت من بوذا الها ، ومن مذهبه الفلسفى والاصلاحى دينا ، وهذه المبالغة قادتهم الى الشرك والكفر ، وذلك ظاهر فى عبادتهم لبعض الحيوانات وتقديسهم اياها ، والتغنى بمجدها واستجلاب مددها وتحريم ذبحها تحريما اساسيا والسجود لها فى كل لحظة ، وقد نشرت الصحف العالمية انباء المذابح التى كانت تحدث نتيجة ذبح هذه الحيوانات .

تعاليم الديانة البوذية :

وتتلخص التعاليم البوذية الظاهرة للكهنة ، والخفية عن الاتباع الا التلاميذ المشتركين فى الاسرار فيما يأتى :ــ

١ ــ لا فرق بين جسم الامير وجسم المتسول الفقير ، اذن لا فرق بين روحيهما فكل منهما مستعد لادراك الحقيقة والانتفاع بها .

٢ ــ يدعو بوذا الى سلوك العمر الاوسط بين التلذذ والزهد الخالص فى الدنيا .

٣ ــ للعمر الأوسط ثمانى شعب هى : ــ النظر الصحيح ، واللفظ الصحيح ، والالهام الصحيح ، والتفكير الصحيح ، والسير الصحيح ، والحياة الصحيحة ، والجهد الصحيح ، والسرور الصحيح .

ويضع بوذا للحقيقة اركانا أربعة هى :—

١ — الرغبة غير المدركة تؤلم .

٢ — الشهوة أصـــل الالم .

٣ — لاستقبال الالم يجب نبذ الرغبة .

٤ — لاجل منع الالم يقتضى اتباع المر الأوسط .

ولا يوجد فى تعـــاليم بوذا شىء عن الله أو عن تقـــديم ذبائح أو قرابين أو شعائر تعبدية ، فقد اهتم بنشر المحبة والاشـــارة الى الالم ، ومن اهم معتقداته أنه لا يسلم بفكرة الخلود فى الوقت الذى يقـــول بمذهب التقمص ، ويؤمن أتبـــاع بوذا بما يسمونه « كرما » أن الرغبة تنتقـــل فى الحياة الاخرى من شخص لآخر ، كما كان بوذا يلقى بتعاليمه شفاها ، مع أن الكتابة كانت معروفة ، وقد جمع تلاميذه اقواله من أفواه المتحدثين والرواة والمؤرخين ، وكتبت كلها بلغة « بالى » لأن اللغة السنسكريتية كانت قد انقرضت ، واتخذ التلاميذ والأتبـــاع هذه الروايات المنقـــولة كتبا دينية لها القداسة والحرمة المعطاة لكتب الفيدا عند البراهمة حتى أن الفيدا بأسفارها لم تعد لها عند اتبـــاع بوذا أى مرتبة من السمو الروحى

قواعد الديانة البوذية :

وتقوم الديانة البوذية على دعائم تعتبر القواعد الأســـاسية للديانة ، والأركان التى تعتبر خطوطا عريضـــة يتخذ منها التفسيرات والشروح ، بحيث لا تخرج تلك الشروح والتفاسير عن هذه الدعائم الأساسية هى :

١ — الألم من لوازم الوجود .

٢ — الرجوع الى هذه الدنيـــا مرة أخرى سببه اتبـــاع الشهوات والنقائص فى الحياة السابقة « عقيدة التناسخ » .

٣ — الخلاص من الشرور والنقائص هو الوسيلة الوحيدة للنجـــاة من العودة للارض فى تقمص جديد بعد الموت .

٤ — التخلص من العقبات التى توقف حركة الخلاص من الشهوات

٥ — التسامح والطيبة والشفقة والحب ولين الجانب ، والاقلاع عن الرغبات الباهظة والاضراب عن الضروريات الهامة ، واشدها درجات الزهد فى الحياة نفسها متى كانت مبذولة فى سبيل تخليص الغير .

٦ — الاغراض فى الانكماش والترهب .

وبهذه القواعد والأسس يمكن للانسان المطبق لها تطبيقا صحيحا أن يصل الى « النرفانا » والنرفانا فى عرف البوذيين عبارة عن بلوغ النفس الكمال الأسمى وانطلاقها من اسر المادة ، واجتماعها الأدبى بالنرفانا وهى الكمال المطلق الغير محدود أو الذى لا يمكن وصفه الا لمن انكشفت له الأسرار وكشف عن بصيرته الحجاب فتراءى له بوذا نفسه ، ومعنى ذلك أن يفنى المؤمن فى الروحانية البوذية الكاملة .

ومع ما نرى فيه من بعض المبالغة ، الا اننا نقول ان الديانة البوذية تدعو الى المحبة ، وما نراه من انحرافها الفلسفى الذى لا يتفق مع العقل أحيانا فنقول انه خير من الظلم والقوانين التى يسير عليها أتباع بوذا اليوم وما ابتدعوه من الشرك والوثنية ، والخضوع للنواميس الكهنوتية ، وألعاب السحر والشعوذة التى جعلها الاتباع من اهم أسرار الديانة البوذية .

الفصل الثالث

الديانة المصرية القديمة

اكتشف العلماء فى القرن التاسع عشر الميلادى حقيقة المصريين ودينهم وشرائعهم ومدينتهم وتقاليدهم وعاداتهم وآدابهم ، وذلك بفضل ما عثروا عليه من الوثائق التاريخية التى وجدت مكتوبة على اوراق البردى ، ومن الكتابات والنقوش التى وجدت على واجهات المعابد والهياكل والقبور والمسلات والأعمدة واغطية التوابيت وداخل تلك التوابيت .

وما جاء فى مذكرات العالم الاثرى مانيتون يؤكد ان هناك انبياء ورسلا ارسلوا الى مصر ، وان الانبياء الذين بشروا برسالات الله فى مصر ، هم الذين دعوا الناس فى الهند وفى قارة آسيا الى عبادة الله وتوحيده وعدم الاشراك به، ولكنهم يقولون ان الدعوة فى مصر سبقت الدعوة فى الهند ، وان نبى المصريين هو ادريس عليه السلام ، وانه هو الذى انتقل الى الهند فبشر برسالته .

ادريس عليه السلام :

وما جاء فى كتب المؤرخين عن ادريس عليه السلام يروى انه ولد بمدينة « ادنو » حيث هبط أهله الذين كانوا يسكنون بسابل ثم رحلوا الى مصر وانه كان يسمى « جورروس » وقيل ان ادريس هو « خانوخ » باللغة العبرية الذى اطلق عليه باللغة العربية « أخنوخ » وسمى فى اللغة الهيروغليفية « خورروس » أو « هورروس » وعرف « هرماكيس » ثم عرف باسم « هرمس » ويسماه البطالسة فيما بعد « اغثاذى مون »

المصرى ، ويسمى فى الكتب المنزلة « ادريس » ونسبه هو ادريس مهائيل بن قينان بن آنوس بن شيث ابن آدم عليهم السلام ، وقد ذكر المؤرخون أن مدة حياته كانت اثنين وثمانين سنة ، عاش خلالها يدعو الناس الى عبادة الله وتوحيده وتنزيهه عن كل شرك ، كما دعا الى الزهد والمحبة والعدل ، والاحسان ، وكان قربانه البقول والذبائح وأنه أول من عرف العلوم الكونية والجيولوجيا والرياضيات وكثيرا من لغات أهل الأرض ، حتى قيل عنه أنه كان يملك من الأسرار والمواهب التى كانت تؤهله لأن يكون الداعى المجاب ، حيث كان يحدث كل قوم بلغاتهم ولهجاتهم ، مما جعل الناس تأنس اليه وتلتف حوله .

تعاليم ادريس عليه السلام :

وقد عرفت تعاليم ادريس عليه السلام من الآثار التى اكتشفت وأخصها خاتمة الذى كان يتمنطق به ، ومن اقواله التى وجدت مكتوبة على ورق البردى ، الذى سرقه الأجانب ووزعوه على المتاحف ودور الآثار فى أوربا ، فقد وجد مكتوبا على خاتمه « الصبر والايمان بالله يرثان الظفر » كما وجد على حزامه حكم بالغة ودروس قيمة منها « حفظ فروض الشريعة من تمام الدين ، وتمام الدين من كمال المروءة ، والمروءة خاصة من خواص الانسان المتقى » وقد عثر ضمن آثاره على فراش كان يصلى عليه مصنوع من الحصير وكان مكتوبا على ذلك الفراش « السعيد من نظر نفسه فى مرآة صلاته وعبادته » كما كان من اقواله المأثورة « حياة النفس فى الحكمة ، ومواتها فى الجهل » .

عقائد المصريين قبل الكهنة :

كانت عقائد المصريين بادىء ذى بدءهى العقائد التوحيدية التى دعا اليها نبى الله ادريس عليه السلام ، وعرفوا أن الله واحد لا شريك له فى الذات والصفات كما كانت عبادتهم خالصة تتمثل فى الرهبنة

والاحترام والخوف والطـــاعة ، يؤمنون ان الله قديم ازلى خالق لا بداية له ولا نهاية ، يفنى ولا يفنى ، كل شيء زائل وهو باقى ، وعرفوه باسم آتون ، وجعلوا لهذا الاسم معنيين : احدهما ظاهر ، والآخر خفى ، كما أعطوا الاسم الظـــاهر معنى انه اذا ظهر بمثاله النورانى « الشمس » سمى آمون ، وأما الاسم الخفى فهو الذى قام به كل الوجود ، يوهب العطـــايا ، ويعطى وياخذ ، وبذلك سمى « رع » ومن هنا كان اسما « آمون — رع » .

وقد جاء فى مؤلفللعلامة « ماسبيرو » وهو استاذ فرنسى « وكان اله المصريين الأول عالما بصـــيرا يدرك ولا يدرك ، موجودا بنفســـه ، حيا بنفسه ، حاكما بنفســـه ، حاكما فى الأرض والسموات ، فهو اب الآباء وام الأمهات ، لا يفنى ولا يغيب ، يملأ الدنيـــا وليس له شبيه ولا حد ، ويوجد فى كل مكان » . وقد وجد ايضـــا فى هيكل ايزيس بصـــا الحجر نقش قديم يتضمن كلمات منسوبة للاله جاءفيها « انا كل شيء كان ، وكل شيء كائن ، وكل شيء سيكون ، ومحال على من يفنى أن يزيل النقـــاب الذى ينقب به وجه من لا يفنى » .

وقد كان قدماء المصريين فى اناشـــيدهم يترنمون باسم اله واحد ، وينشدون للخالق المصـــور الذى له الأسماء الحسنى الذى خلق عينين وهداه النجدين ووهب له اذنين ليسمع بهما اناشيد ذلك الاله الذى استطاع الانسان أن يبصر قدرته ، معترفا بأنه مولاه ولا مولى له الا الله ، وقد ورد فى بعض الاناشـــيد والأدعيـــة الواردة فى كتب قدماء المصريين : « يامولاى وياسيدى انك خلقتنى وصـــورتنى وجعلت لى عينا ابصر بها آثار قدرتك وآذانا اسمع بها اناشيد تقديسك » .

دور الكهنة وانحراف الديانة المصرية :

وبنفس الطريقة التى انحدرت بها الديانة البرهمية ، وفى نفس الطريق

الذى سار فيه الكهنة البراهمة ، وبنفس الأسلوب انحرف الكهنة المصريون واتخذوا من صفات الله ثالوثا ، وكما اتخذ البراهمة الثالوث « برهما وفيشنو وسيفا » اتخذ المصريون من صفات الله وهى « الوجود والحكمة والحياة » الثالوث آتون ورع وآمون » .

وظل المصريون يستحدثون على مر السنين اسماء وآلهة ، حتى صار الثاللوث تاسوعا غير آلهة ثانوية منسوبة الى هذا التاسوع ، وظلت الديانة المصرية تتطور وتنحرف حتى وصلت الى عبادة النار والنجوم والكواكب وما الى ذلك من الظواهر الطبيعية التى تاه فى عرفها وكهنها المصريون ، وان كانت عبادة الظواهر الطبيعية حفزت عبادها على ان يكتشفوا اسرارها مما خدم العلم والعلماء ، وكشف كثيرا من الأسرار التى اصبحت فيما بعد من الركائز الثابتة والقواعد الأساسية فى علوم الفلك والجيولوجيا والرياضيات .

واذا كان المصرى القديم قد انحرف فى عبادته ، تحت تأثير التعاليم المبتدعة ، واهم تلك التعاليم تعدد الآلهة ، وخير دليل هو التاسوع المصرى الذى اشرنا اليه ، والتاسوع عبارة عن الثالوث الأول « آتون ورع وآمون » واشتق منه الثالوث الثانى « تيت — نوت — شو » ثم جاء الثالوث الاخير من التاسوع « ايزيس واوزوريس وسيت » ثم كانت هناك آلهة ثانوية نذكر منها ثمانى هى : هاتور او هتوريت وليسيرتشر وبوناشيت وتنجيت وتوت ومعت وبتاح ونيفون » واليك التاسوع المصرى وصفة كل اله ووظيفته .

١ — آتوم او آتون × الاله الخفى الذى لا يظهر الا بصفاته وهو نور الأنوار .

٢ — رع × الذى تشخص فيه النور فصار عطاه وخلقا « الخلق والرزق » .

٣ — آمون × ظهور القدرة المشرقة فى الشمس وهو مظهر رع الذى يوصل عطاءه الى المخلوقات ، وفى النهاية صار تمثالا لطيبة .

٤ — نيت × الأثير العام .

٥ — نون × السماء بأفلاكها وكواكبها والهيولة العامة .

٦ — شـــو × الجو أو الموجات الكهربائية الموجبة ويشتق منه الاله « تفنوت » وهى الموجات الســالبة » وهذا يعطى نفس معنى نشنو عند البراهمة »

٧ — ايزيس × بمعنى الحياة أو الروح .

٨ — أوزوريس × بمعنى الثمار والازدهار ، وهذا الاله هو الذى سيحاسب الموتى .

٩ — سيت × المدمر أو الفناء .

واما عن الآلهة الثمانى الثانوية ، فنذكرها مع صفاتها ووظيفتها :

١ — هاتور أو هتريت — اله الطبيعة .

٢ — تيسير تشر — اله النظام والقوانين .

٣ — يوتاشيت — اله الفيض الشمسى .

٤ — تحييت — اله الأطياف الانعكاسية .

٥ — شوت — اله العلم فى معناه العام .

٦ — معت — اله الحكمة .

٧ — بتــاح — اله القدر .

٨ — تيفون — اله الشر .

وكانت صلاة المصريين الذين انحرفوا ، موجهة الى التاسوع المصرى ، وكانت دعواتهم وأناشيدهم تنادى قوى الطبيعة على أنها آلهة ، وقد كانت تلك الصلوات تصـــدر منهم تقربا للتماثيل الرمزية التى أقيمت لآتون

ورع وآمون فى طيبة من اهم ظواهر الشرك والوثنية ، حيث ظن المصريون المتأخرون الذين اعقبوا حكم الكهنـــة ، ان تلك التماثيل الرمزية آلهـــة مختلفة نعبدوها ، وتعددت الآلهة وصارت المدن مليئة بتلك الآلهة ، وكانت لكل مدينة آلهتها التى تقدسها دون الآلهة الأخـــرى ، فقد كان موطن « ازوريس » فى ابيدوس و « فتاح » فى منفيس و « آمون » فى طيبة ، و « وهوروس » فى ادفو و « هاتور » فى دندرة . وكانت مدينـــة طيبة دون ســـائر المدن مملوءة بالمعابد والتماثيل ، حتى قام اخناتون بثورته المشهورة لتوحيد الاله وعبادة اله واحد بعد الآلهة المتعددة ، والتى كاد ان يكتب لها النصر ، لولا قيام الكهنة فى وجهه .

وهكذا ظلت الديانة المصرية تتنقل من طور الى طور آخر تنازليا ، فتطورت من عبادة اله واحد ثم عبـــادة آلهة ثلاثة ثم آلهة تسعة ، ثم تطور التاســـوع الى ضعف عدده ثم ظل عدد الآلهة يأخذ فى الازدياد حتى بلغ ما يقرب من المائة ، بين أسم لفلك وصفة لكوكب ، وعظمـــة لظاهرة طبيعية ، وتقديس لطير أو حيوان ، وكثيرا ما كانت بعض المدن تعبد ملوكها على أنها آلهة ، وكانوا يقيمون لهم الصلوات ويقدمون لهم القرابين ويرفعون اليهم البخور ، وظل المصريون على حالتهم من الوثنية والشرك حتى هاجم الفرس واليونان مصر واغاروا عليهـــا ، نهدموا المعابد وخربوا الهياكل ، وحطموا التماثيل ، وحاربوا الكهنة اينما كانوا ، وعندما افتتح الرومان مصر هدموا بقية الهياكل وازالوا كثيرا من المعابد ، وابطلوا كثيرا من العبادة ، وكانت الخاتمة ان أمر الامبراطور « تيودور » الرومانى بابطال الديانة المصرية القديمة ، واعتبار النصرانية دينا لمصر .



الفصـل الرابع

الديانة الصينية والكنفوشيوسه

قديما قال الصينيون ان اله السماء كائن عظيم محب للخير ، ويكره الشر ويجازى الناس باعمـــالهم ، كما انهم كانوا لا يؤمنون بوجود اى قوى خبيثة فى هذا العالم ، ثم جاء طور التغيير الفكرى تحت ايحـــاء التخريج والتغيير ، وبمرور الأيام وتداول الأعـــوام ، تغيرت الأفـــكار فاضافوا الى هذا الاله الواحد كثيرا من مظاهر الطبيعة ، كالشمس والقمر والكواكب والنجوم والارض ، وما عليها من جبـــال وتلال ، وما يجرى فيها من بحـــار وانهار ثم تطورت معتقداتهم فاعتقدوا بوجود كائنـــات روحية تسكن البيوت ، وان تلك الأرواح لها قدرة على النفع والضرر ، فقدموا لها القرابين ، كما كانوا يعبدون ارواح اسـلافهم ، وتحـــول الاله العظيم الواحد الى آلهة متعددة .

كنفوشيوس :

ولد سنة ٥٥١ قبل الميلاد فى مقاطعة « لو » من أعمال ولاية شانتنج ، وكان منذ صباه مغرما بتقليد الكهنة فى تقـــديم القرابين ، واقامة الشعائر الدينية ، ولما كبر اثر فى حيـــاته ما شب عليه فى صغره فقد تولى اعمالا كثيرة فى الحكومة ثم عمل مدرســـا ، ومن وحى التدريس وحبه للالقاء والتلقين نشـــا عنده التفكير والتأمل ، وخرج على النـــاس بمذهبه الذى ضمنه تعاليمه وآراءه ، ووضع له الأسس والمبادىء ، التى دان لها واعتقدها وآمن بها كثير من اهل الصين ، وقد عمل على نشر مذهبـــه بكل ما اوتى من جهـــد ووســـائل ، وأمكانيات ، فقد كان ينتقل من ولاية الى ولاية يبشر بهذا المذهب حتى مات فى سن الثالثة والسبعين .

مذهب كنفوشيوس :

وجد كنفوشيوس قومه غارقين فى بحر من الأوهام ، عاكفين على التفكير فى عالم الأرواح ، والتأمل فى ذات الاله مضيعين الوقت فى البحث عن صفات الملائكة والجنـــد ، منقبين عن الحيـــاة المقبلة بعد الموت ، جــل همهم تقديم القرابين واقامة الشـــعائر الدينية لارضـــاء ارواح اسلافهم ، باحثين عما يرضى قوى الطبيعة عنهم ، فالسماء لا تمطر لان الهها غاضب ، والكواكب لا تظهر لأنها غير راضية ، والشمس فى كسوف لان اهل الأرض عصـــاه ، وبهذا انصرفوا عن الحيـــاة انصرافا تاما ، وأصبح الشعب متكاســـلا غاية التكاســـل ، مما نتج عنه وقوف عجلة الحياة ، وخيم الجهـــل بالواجب والحق على الناس ، فكسدت التجارة وتوقفت الأعمال العامة والخاصـــة ، حتى أصبحت الحيـــاة فى الصين أشبه ما تكون اشباحا بلا روح تسيرها أو تدفعها .

فخرج عليهم كنفوشيوس بمذهبـــه ، فدعا الى معرفة كل انســـان ما عليه من واجبـــات ، وما له من حقوق ، وبين ماهية الفرد فى المجتمع ، وواجبه نحو مجتمعه وحقه فى ذلك المجتمع ، فرق بين العبـــادة والعمل ، وجعل لاصـــلاح المجتمع أسسا ، منها اصـــلاح الفرد هو اصـــلاح الأسرة ، وصـــلاح الأسرة هو صـــلاح المجتمع ، ودعا اهل الصين للعلم ، كما بث فيهم روح الفضيلة والتآخى ، والحب والطهر ، والنقاء والصبر ، والعزة والكرامة ، والتزود من المعرفة . وكان يلقى دروسه على هيئة محاضرات كلامية ، فلم يكتب حرفا واحدا ، ولكن كان تلاميذه يجمعون ما يخرج من فيه من حكم ، وبذلك اعتبر اكبر حكماء الصـــين ومؤسس الديانة الصينية ، واجمع الصينيون على عبـــادته وتقديس تعاليمه وحكمه واصبحت الكتب التى تركها بعد موته والتى كتبت بخط تلاميذه كتبا مقدســـة ، لها من القداســـة ما لأى كتب سماوية ، حتى أعتبرت فيما بعد دستورا للصين ، وهذه الكتب ثلاثة هى :ـــ

١ — مختارات كنفوشيوس .

٢ — تعاليم البالغين . ٣ — الاعتدال .

عبادة الصين وعقائدهم :

مما تقدم يتبين لنا ان الصين كانت كلها تتلخص فى ان يقيموا الشعائر ويقدموا القرابين للاله الأعظم ، وارواح اسلافهم ، وقوى الطبيعة المختلفة ، وهذا كان له اثره فى اقامة المعابد والهياكل ، فقد كانت فى الصين على هيئة هيكل عظيم بداخله هياكل ثلاثة ترمز الى مذابح ثلاثة ، لكل معبود هيكل .

١ — مذبح الكواكب والأفلاك السماوية والأرضية . وهذا تقدم فيه القرابين للشمس والقمر والكواكب والنجوم والأرض والتلال والجبال والانهار ، وما الى ذلك من قوة الطبيعة .

٢ — مذبح الأرواح . حيث كانوا يعتقدون ان ارواح آبائهم وأجدادهم وملوكهم تهديهم فى تلك الحياة ، وتقف معهم وقت الشدة والرخاء ، فكانوا يقدمون القرابين لها فى هذا المذبح زيادة فى ارضائها وليستهدونها فى امورهم الحاضرة والمقبلة ، ويطلبون منها السعادة فى حياتهم .

٣ — مذبح الاله الأعظم : وهو خاص بعظيم السماء ، وهذا المذبح أقدم المذابح واعظمها واكبرها ، لا تجد حوله اصناما أو تماثيل او دمى لانه مذبح الاله الغير منظور .

ويعتقد الصينيون فى عظيم السماء ، او الاله الغير منظور ، انه الرب العظيم ومالك الاكوان ذو الفضل غير المتناهى ، ليس له مكان أو زمان ، موجود فى كل الوجود ، اينما توجه الانسان فهو معه ، حاضر لا يغيب ، الاله الذى لا يحابى ، بل يجود بلطفه ورعايته على الانسان الفاضل ، ويحب استعمال الرأفة والرحمة ، وانه يعتنى

بالارض ، وحضوره فيها دائم وان كان غير منظور وقد سموه « نى سز » أو « تى ين » ثم تطورت التسمية الى « شانج تى » .

واعتقد انه ليس بمستغرب على القارىء أن يعرف من وحى ما تقدم من المذابح الثلاثة ، انه ولا بد أن يكون هناك ثالوث الهى على غرار الثالوث الهندى « برهما ــ فشنو ــ سيفا » فقد تحولت العبادة من كونها لاله السماء أو عظيم السماء الاله الغير منظور الى أن اصبحت لثالوث وضعه فيلســـوف صينى يدعى « فوق » .

الثالوث الصينى :

١ ــ تى ين ــ أو الاله المجهول غير المنظور .
٢ ــ تشانج ــ أرواح الآباء والحكماء الملوك .
٣ ــ نى سز ــ الشمس والكواكب السيارة .

وكان المذبحان الاول والثانى المخصصين لعبادة الاقنومين الاولين من الثالوث تقام حولها الاصنام والتماثيل التى ترمز الى صـــورة الآباء والحكماء والملوك ، كما كانت تقام التماثيل التى ترمز الى قوى الطبيعة ، ومن ذلك اصبح الصينيون يعبدون الاصنام .

ومن الصين انتقلت هذه المبادىء الى اليابان ، حتى اصبحت العائلة المالكة فى اليابان آلهة ، واعظم الآلهة الامبراطور .

الفصل الخامس

الديانة الكلدانية

كانت ديانة الكلدانيين ديانة مستوردة من الدول المجاورة ، حيث كان الكلدانيون حلقة الاتصال بين مصر والفرس وفينيقيا واليونان ، وقد اتخذوا عن المصريين عبادة الشمس وسائر النجوم ، والكلدانيون هم معلموا الوثنية الحقيقية فى الشرق ، وقد برعوا فى علم الفلك والسحر والشعوذة .

آلهة الكلدانيين :

جعل الكلدانيون لكل واحد من الكواكب السيارة صنما ، واكبر الاصنام الذى كان يرمز الى الشمس وهو المعتبر فى عرفهم اهم الآلهة واكبر اصنامها ، ويمكن الاشارة الى بعض آلهتهم :

١ — بعل او آمون اله الشمس .

٢ — عشتروت او ايزيس اله الجمال .

٣ — هوروس أو تموز اله الخصب والنماء ، ويقام له عيد فى شهر تموز (يوليو) من كل عام ، وهذه الآلهة هى التى حطمها ابراهيم عليه السلام ، وقصته معها معروفة ومشهورة .

الديانة الفارسية (المجوسية)

عبد الفرس اول امرهم قوى الطبيعة ، وخصوصا ذلك المخلوق العظيم (الشمس) الذى تجلى عليهم حتى راوه فى السماء واثبتوا له كثيرا من أوصاف الالوهية ، فقالوا « انه عالم بكل شىء ، وانه غير

محض ، وانه أعظم الموجودات ، وانه نورانى يشرق على العالم بنوره ، وكان له كثير من الأعوان والشركاء وهم ـ الصديق وهو الضوء ، وستة من الملائكة المقربين الذين يحملون العرش وآلاف من الموجودات التى تتمثل فى مظاهر الطبيعة .

ثم تطورت عبادتهم الى عبادة الهين احدهما يسمى « مزدا » أو « أهور مزدا » وهو اله الخير العالم بكل شىء ، والاله الثانى ويسمى « اهريمان » وهو اله الشر ثم تطورت العبادة الى مجوسية مطلقة .

عقائد المجوسية :

قسم المجوس او الفرس العوامل المؤثرة فى تلك الحياة الى قسمين هما الخير والشر . فالنور عندهم رمز لاله الخير « أهور مزدا » عاش زمنا طويلا ثم ظهر « أهريمان » اله الشر ، وأن سبب وجود اله الشر ان اله الخير هو الذى طلب قوة مضادة لكى تظهر قوته فقدموا لاله الخير القرابين ، ثم تطورت العبادة من عبادة النور الى عبادة النار .

الديانة اليونانية

القارىء لاشعار هومير ، وهزيود المترجمة الى سائر اللغات الحية يخرج منها بطبيعة آلهة اليونانيين .

عقائد اليونانيين :

كان اليونانيون يؤمنون أن آلهتهم ياكلون ويشربون ويلعبون ويلهون ، ويخوضون المعارك فيغلبون ويغلبون ، ويتألمون ويفرحون ، ويحزنون ويتباغضون ويتحاسدون فيحقدون ، والويل لمن تعرض لهم او اغضبهم فان غضبهم شديد ، ولذلك حكم على سقراط ان يشرب

السم ، ومات شهيد الجهر بالحقيقة ، لانه افشى أسرار الوحدانية وخلود الروح ، واعتبروه كافرا بالآلهة .

حكماء اليـــونان وفلاسفتهم :

وقد ظهر فى اليونان حكماء ، لكل منهم مدرسة خاصـــة أودعهـا فلسفة أمثال طاليس ،وفيثاغورس ، وسقراط ، وافلاطون ، وقد ذهب هؤلاء الفلاسفة شأوا بعيدا فى استطلاع الحقيقة ، ولكنهم اختلفـــوا فى المشـــارب ، فمنهم من تأثر بعلوم الكهنة ، ومنهم من كاد ان يجهـــر بالحقيقة التى كانت تلح فى الخروج الى عالم الظهور لولا خوف الحكماء من ان يكون مصيرهم مصير سقراط .

الديانة الرومانيـــة

انتقلت الديانة اليـــونانية الى الرومان ، الا أن مدارس الديانة الرومانية بنيت على الاخلاق ، وأن كان اليونانيون قد الهوا الاخـــلاق والفضـــائل ، الا أن الديانة (الرومانيـــة) تغـــالت فى هـــذا الشـــأن ، فقد كانت الديانة الرومانيـــة لا تعـــرف الهـــا معينـــا ، ولم تعترف بوجود اله أو آلهـــة ،وانما كان جل همهم ان يلقنـــوا ابناءهم الاخـــلاق والفضـــائل منذ نعومة اظفارهم ، ويمكن ان يقـــال ان فلسفة الديانة الرومانية وليدة الفلسفة اليونانية .

الفصل السادس

(أ) الديانة الاسرائيلية

موسى :

هو نبى الله موسى الذى ارسله بعد أن تربى فى بيت فرعون الى بنى اسرائيل ليخرجهم وينقذهم من ظلم فرعون وملئه ، ومجمل قصته ان امه ألقته فى اليم ولكن الله نجاه بأن اخذته امرأة فرعون ، ثم بعد أن كبر قتل مصريا انتصارا لرجل من قومه بنى اسرائيل ، وشاع الخبر واراد فرعون قتله ، فهرب موسى وسكن ارض مدين وتزج ابنة شعيب بن صفوره بعد قصة أستسقاء لها ولأختها ، وبعد أن قضى اجلا وخرج باهله ظهرت له نار من شجرة تشتعل ، وخاطبه الله وامره أن يذهب الى فرعون وان يخرج بنى اسرائيل من أرض مصر .

الله :

تقول التوراة فى اسفارها أن موسى عندما رأى النار ظهر له ملاك ، وسأل موسى الملاك عن اسم الله ، فقال له الملاك أن اسم الله هو « يهوه » اله اسماعيل واسحق ويعقوب ، ومن أسمائه « آهيا » و « الوهيم » وكل هذه الأسماء تعنى معنى وصفات « الله ـ القادر الكافى » .

الوصايا العشر :

وبعد أن خرج موسى بقومه ، ذهب لمناجاة ربه ، وآتاه الله الكلمات العشر ، وهى اول التوراة ، وتتلخص فيما يأتى :

١ ـ انا الرب الهك الذى اخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة اخرى امامى .

٢ — لا تضع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما فى السماء من فوق ، ومما فى الارض من تحت ، ومما فى المـــاء تحت الارض ، ولا تسجد لهن ، ولا تعبدهن لانى انا الرب الهك اله غيــور افتقد ذنوب الآباء فى الابنـــاء حتى الجيـل الثالث والرابع من مبغضى ، واصنع احسانا الى الآلاف من محبى وحافظى وصاياى .

٣ — لا تنطق باسم الرب الهك ، باطلا لان الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا .

٤ — اذكر يوم السبب — ومعنى السبت الراحة — لتقـــدسه ستة ايام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما يوم السبت ففيه سبت للرب الهك ، لا تصنع عملا ما انت وابنك وعبــدك وامتك وبهيمتك ،ونزيلك الذى داخل ابوابك .

٥ — اكرم اباك وامك لكى تطول ايامك على الارض حتى يعطيك الرب الهك ابناء بررة .

٦ — لا تقتل .

٧ — لا تزن .

٨ — لا تسرق .

٩ — لا تشهد على قريبك شهادة زور .

١٠— لا تشته بنت قريبك ، لا تشته امراة قريبك ، ولا عبــده ولا امته ، ولا ثوره ، ولا حماره .

شريعـــة موسى :

وقد دونت شريعة موسى الاصلية فى « التوراة » وهى عبــارة عن أسفار دونها الأحبار والكهنة بعد موسى ، فمنها من ناله التحريف والتبديل

والتغيير ، ومنها من ضاع اثنـــاء التيه ،ولكنهم قسموا التوراة الى اسفار مقدسة نسبوها الى الله واسفار نسبوها الى الاحبار والعلماء .

الاســــــفار :

١ — سفر التكوين ، ويحوى الخليقة وقصص الأنبياء من آدم وخروجه من الجنـــة ال ى اسحق عليه الســـــلام واشارة الى يعقوب ويوسف .

٢ — سفر الخـــروج ، ويقص التاريخ ابتـــــداء من موت يوسف الى خروج بنى اسرائيل من مصر ونزول الوصايا العشرة .

٣ — سفر اللاوين ، وهو النظام التشريعى وبه تفصيل عن تقديم الذبائح والمحرقات والقرابين ورسم الكهنة .

٤ — سفر العـــدد ، يحوى عدد بنى اسرائيل وانســــابهم وشجرة القبائل الاسرائيلية ، كما يروى قصة التيـــه فى الصـــــحراء الى ان وصلوا الى أرض موآب ثم أرض الميعاد .

٥ — سفر التثنية ، ويحوى كلمات موسى الاخيرة وخبر وفاته ووصيته .

وهذه هى الأسفار الخمسة التى نسبوها الى موسى عليه السلام ، اما باقى الأسفار فهى « يشـــوع والقضاة وراعوث ، وصموئيل الأول والثـــانى ، واخبار الأيام الأول والثانى ، وعزرا ونحميـــا وأســــــتير وايوب والمزامير ، والأمثال والجامعة ونشيد الانشــــاد وأشعياء وارمياء ومرائى ، أرمياء ، وحزقيال ودانيال وهوشع ويوئيل عاموس عوبيديا ويونان وميخـــا ، وناحوم وحبقوق وصنفيا وحجى وزكريا وملاخى » ، وهذه الأسفار وعددها أربعـــة وثلاثون سفرا وكلها بين نشيد وترتيل ، والاسفار كلها قد بينت تاريخ ضلال بنى اسرائيل وخروجهم من شريعة موسى .

« ب » اليهـــــودية

تغلبت المـــادة على الروحية عند بنى اسرائيل ، ثم مرت بهم اطوار تعرضوا فيها لنقمة الله جزاء خروجهم عن شريعته حتى انقرضـــــوا ، وبقى قوم نسبوا الى اسرائيل عفوا ، وهم ليســـوا اصلا منهم ، بل هم قوم تهودوا ثم اصبح الدين قضـــــايا كلامية ، وآراء فلسفية ، فتركوا الأصـــل وتمسكوا بالفروع واولوها كما تشتهى انفســـهم ، واختلطوا بغيرهم من الامم وأخذوا عنها كثيرا من العــلوم والآداب ، واكتســـبوا طرقا جديدة للتفكير ، وعبدوا آلهة متعددة مثل آلهة الآراميين والكلدانيين والموابيين امثال البعل والبعليم والعشتاروت .

ترتب على هذه النزعات انقسام اليهود ممثلين فى احبارهم وعلمائهم الى قسمين هما الفريسيون الذين يقال عنهم الربانيون والصديقيوم وهم المشهورون باسم « اشكنازى » وكل من القسمين له راى .

راى الفريســـين : تمسك الفريسيون بحفظ الشرائع والتنفيـــــذ الحرفى للأصول وتشددوا فى التنفيذ وتمسكوا بالتقاليد ، واخذوا فى تفسير الكتب المقدســــة مأخذ السلف الصالح ، كما اعتقدوا ان حرية اليهود وكيانهم لا يحفظ الا بالتمسك بالشريعة ، وأن عظمتهم لا تسترد الا بالدين .

راى الصـــديقيم : واما الصديقيوم فكانوا يقولون أن الله خلق الانسان كفئا ليتولى ادارة شئون نفسه بنفسه ، وان من العبث انتظار ارادة الله فى حين ان الانسان خلق مختارا ، ويجب ان يحل مشـــاكله بنفسه ، ولا يعرفون شريعة ولا يتمسكون بسنة ، ولا يعترفون بتقاليد او عادات ، كما يقولون ان آثار موسى ليس فيها ما يؤيد التمســـــك بالشريعة ، وبذلك ينافون الحقيقة فى قولهم .

التلمـــود : كان من نتيجة الخلاف الدينى وتغلب المـــادة على الروح ان استحدث اليهود كتابا مقدسا يختلف عن التوراة سموه باسم

التلمــود ومعناه المفسر ، وهو مجموع كلى يطلق اليهود على بعضــه « الجومارا » وتعطى معنى التام ، واطلقوا على بعضه الآخــر اســم « المثنــاه » اى الثانى ويتكون من ستة اسفار تعتبر قاموسا فى الزراعة والاعيــاد والزواج والدية والذبائح والقــرابين والطهــارة وقد جمــع التلمود من أصلين احدهما يسمى الأورشليمى وهو ما كتب فى أورشليم والآخر كتب فى نابلس وسمى النابلسى ، والأول اقوم من الثانى ، وظل الخلاف خفيفا وخفيــا حتى آخر عهد سليمان وفى أول حكم رحبعــــام ابن سليمان احتدم الخلاف وانقسم اليهــود الى مملكتين هما يهــوذا واسرائيل .

الدولتــــــان :

تنقسم الدولتان الى دولة يهوذا وهى المؤلفـــة من سبطى يهوذا وبنيامين ، والثانية دولة اسرائيل وهى التى تتألف من باقى أســـــباط بنى اسرائيل العشرة ، وظلت الدولتان تتنافران وتتقاتلان حتى قضت دولة يهوذا على دولة اسرائيل وعاشت بعدها حوالى خمسمائة سنة (١).

اقســـام اليهود الفقهيـــة :

وكما انقسم اليهـــود الى قسمين وهما الفريسيون والصديقيوم فلابد من الرجوع الى اصل التسمية ، فبعض الفرق سميت بالصديقييم ، ولذلك لتمسكهم بالنصوص ، وتفسيرها حسب هواهم ، ومن هذه الفرقة تناسل السامريون والصديقيوم .

والفرقة الثانية اضافت الى معتقدها تقاليــد المشايخ لمـــا يظن فيهم من قداسة ، وتسمى « خاسويم » اى الاتقيــــاء ، ومنها تناســـل الفريسيون والأسينيون .

ثم انقسم اليهود الى طوائف شتى وفرق متعددة ، ولا يزال منهم فى عصرنا هذا الربانيون ، ويكونون السواد الأعظم من اليهود ، وينقسمون الى السافروديم « العرب » و « الاسكنازيم » « الأوروبيون » والربانيون يقدسون التوراة والتلمود معا باعتبار ان التلمود موحى به .

---

(١) انظر كتاب المؤلف « اليهود من الكتب المقدسة » .

كما يوجد فى عصرنا الحالى فرقة « القرائين » والقراؤون يعدون الربانيين ضالين فى معتقدهم ، وهم لا يقدسون غير التوراة ، ويفسرونها معتمدين على الأدلة الفعلية ، وباب الاجتهاد مفتوح أمام كل يهودى ، ولا يؤمن القراؤون بالتلمود الا على سبيل انه مجموعة من آراء المفكرين القدامى يجب الائتناس بها فى بعض الأحوال ، لا فى الأحوال كلها .

وهكذا يمكن ان نقول ان اليهود ضلوا سواء السبيل وخرجوا عن الجادة وانحرفوا عن اهدافهم التى جذبتهم عنها اهداف اخرى ، فأقاموا الهياكل كما تقيم الأمم والشعوب الوثنية الهياكل لأربابها ، وقدموا القرابين والذبائح كما كان يقدمها عباد الوثن ، ثم زادوا فى الاسفاف بالتوحيد حتى جعلوا الأوثان فى بيوتهم وسموها « الطرافين » وعبدوا البعل وغيره ووضعوها فى هيكل سليمان .

ومع التخويف وهزيم النذير بين يدى عذاب شديد ، الذى ورد على لسان أنبيائهم المتعاقبين الذين كانوا دائما يوجهونهم الى عبادة الاله الواحد رب الجنود ، وأنه القوى المنتقم الجبار الغضوب ، وأقوال أنبيائهم تصور لنا الحال التى صارت اليها عقيدة التوحيد والتنزيه اذا ما صارت الى قوم امتلأت قلوبهم بالمنافع والحرص على الدنيا . فقد أصبحوا لا يبغون رضوان الله خالصا لوجهه ، ولا يعبدون الله مخلصين له الدين ، لانه لا يوجد فى نفوسهم أو عقولهم الا المادة وما يتفرع منها .

الدين والشريعة فى عرف اليهود عبارة عن تشريعات رسمت للمعاملات التى يمكن بها أن يستحلوا أموال غيرهم من الناس والأمم ، وطقوس فى العبادة هى أيضا صور من شريعة المعاملات وصيغ السندات والديون والمطالبات وانتهاك الحرمات واستعباد الشعوب واستحلال المحرمات ، وفى جملتها يمكن أن يقال ان عبادة اليهود اما للاعتداء ، أو زيادة الرزق عن طريق السلب والنهب ، وبذلك تجدهم قد انحرفوا عن دينهم ، وآخر القول فيهم انهم اصبحوا لادينيين .

الفصل السابع

(٢) « المسـيحية »

« دين الطهـر الوجـدانى »

لمـا كانت الديانات اليهودية قد تركت لليهود الحبل على الغارب ، وتغلبت المـاديات على عقولهم وغمرت قلوبهم ، كان لابد من دين يخاطب الضمير ويتناجى مع الوجدان ، ويناجى الروح ويتسلل الى النفس ، فيطهرها ويمحو ما ران عليها من زيف ويزيل ما الم بها من غشـاوة ، لذا كانت المسيحية خالية من المـادة الا شـذرات أوحت بها الضرورة ، فقد كان جل توجيهها لفت النظر الى السماء ، حيث لا تغنى المجسمات المحسـوسة عن الغبطة بالتأمل فى ذلك الكمال الابدى المطلق فى الاتجاه الى الله سبحانه وتعالى ، حيث تجد النفس فى هذا الاتجاه السـعادة الكبرى والراحة التى لا يشوبها الملل أو يعيبها القلق على المسـتقبل ، بل يكون الايمان بما هو آت وما مضى .

وبهذا كان طبيعيا أن يطلب الانسان طرق الهداية حسب فطرته وخلقته ، التى فطر عليها ويستمع لنداء السماء : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » وتجعل تلك العبادة خالصة لوجه الله لا يشرك بها مال ، وذلك حسب قول المسيح عليه السلام « لا يجوز لرجل ان يخدم سيدين اما ان يخدم الله أو يخدم المـال » ولذا كانت المسيحية لا تدعو الى التوحيد والتنزيه عن الشرك فحسب ، بل صورت الله سبحانه على انه المعشوق الأسمى الذى يتجه اليه وجدان كل حى فيتلاشى من قلب الانسان ما عمر به من طقوس وشعائر وثنيـة ،ويتبدل قلبـه الى عامر

بحب الله الذى لا يعبد سواه وهو القادر على تحــريك القلب ، فالقلب بين اصبعين من أصابع الرحمن يحركه كيف يشاء .

والمسيحية هى النصوص التى جاء بها السيد المسيح عليه السلام ، ولا يخـــرج مضمونها عن ما جاء على لسانه فى القـــرآن الكريم : « أن اعبدوا الله ربى وربكم » لا ما الحق بكلامه من الفوارق وســيرته من التأويل ، وبذلك تكون المسيحية هى دين الروح وخطــاب القلب ، ونداء الحس ، بصرف النظر عن الفوارق الاقليمية والدولية ، جاءت خالية من المراسم والطقوس ومن علائق التجسيم والمادة التى تولد الرين على القلوب » .

الله : دعا المسيح عليه السلام الى توحيــد وتنزيه الله عن الشرك او المشاركة مثله فى ذلك آثل باقى اخوانه من الانبيــاء والرسل ، **وقد تبرأ من الذين قالوا عنه انه الله او ابن الله** ، وكان قــوله لربه « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » خير حاسم للنزاع ، وان كان المتشدقون يتخذون من كلمــة النبوة التى وردت مجازا فى بعض المواقف على انه ابن الله ، فقد اخطأوا حيث أن الكلمة كانت ترمز الى جميع عبــاد الله المخلصين الذين آمنوا بوحدانية ربهم انهم ابنــاء الله ، وذلك حسبما جاء فى أمر المسيح القــائل لهم يجب ان تصلوا هكذا : « ابانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك ، ولتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الارض ، اغفر لنا ذنوبنا ... وفى هذا المقام يستطيع ان يقف كل مسيحى مؤمن ويناجى اباه الذى فى السماء اى ربه القــدوس اسمه والمنفذ لمشيئته فى الارض والسماء « غافر الذنب قابل التــوب شديد العقاب » .

ويتضح لنا جليا أن المسيح لم يكن الها او لم يدع يوما ما انه اله ، وذلك من مناقشته لأحد الفريسيين ، عندما قال الفريسى : « ايها المعــلم

الصالح » ، وهنا استدار المسيح اليه شبه مستنكر ، وفى الوقت نفسه معلم مرشد : « كيف تدعونى صالحا وليس أحد صالحا الا الله » ومن هذه النقطة تفهم ان الفريسى جاء يستدرج المسيح لانه سمع من تلاميذه الذين يقولون عن المسيح انه الله ، فكان رده على المسيح عليه السلام مظهرا لما يبطنه : « نعم يا معلم ليس أحد صالحا الا الله » وانتهت المناقشة بتأمين المسيح على كلام الفريسى حين قال له : « انك لست بعيدا عن ملكوت السموات » .

العقيدة المسيحية الحقة : ان العقيدة فى الدين بشر به السيد المسيح تتجلى واضحة كل الوضوح فيما جاء فى انجيل يوحنا : « الله لم يره احد قط » وتأكيد العقيدة التى جاءت بها المسيحية تعلم المؤمنين أن من يؤمن بربه فهو حى . ومن لم يؤمن أو يشرك بربه أحدا فهو ميت ، لقول المسيح عليه السلام للمؤمن الذى جاء يستأذنه فى دفن أبيه الذى مات على غير الايمان : « دع الموتى يدفنون موتاهم » ، وقد كان المسيح لا يقيم للجسد وزنا الا بقدر بسيط على اعتبار انه وعاء الروح ، فقد كان يعلم تلاميذه قائلا لهم : « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، بل الحرى أن تخافوا من الذين يقتلون الروح » ، وكان فى تعاليمه يقلل من شأن الدنيا وما حوت ، ويفضل الآخرة التى هى خير وأبقى حيث يقول : « ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » .

(ب) المسيحية بعد المسيح

انحراف المسيحية : بعد وفاة المسيح عليه السلام بحوالى سبعين سنة ، و هو تاريخ كتابة اول الأناجيل الاربعة « مرقص » انبثقت مدة آراء خالف بعضها البعض ، وكان محور الخلاف شخصية

المسيح عليه السلام وما حول تلك الشخصية من السمو الروحى والسحر السماوى الالهى الأخاذ والنور الملكوتى الباهر .

فراى يناقش شخصية المسيح على اساس طبيعة واحدة بمشيئتين ، وراى يناقش تلك الشخصية على أن المسيح طبيعـــة واحـــدة بمشيئة واحدة ، وراى ثالث يناقش شخصية المسيح على انها طبيعتان ومشيئتان ، من تلك الآراء المتباينة ظهرت فى عالم المسيحية طوائف متباينة الآراء ، كل طائفة آمنت براى من الآراء الثلاثة .

والطوائف الثلاثة تزعم قيادتها ثلاثة من الكهنة قاد كل منهم طائفة آمنت برأيه فأول الكهنة آريوس ، وسميت طائفتــه بالآريوســيون ، والثانى هو نسطور وسميت طائفتــه بالنسطوريين ، والثالث وهــو يعقوب الاسحاقى وسمى اتباعه باليعــاقبة او اليعقوبيين ، ولكن تلك الطوائف الثلاثة اصبحت فيما بعد طائفتين لانقراض الطائفة الثالثــــة وذوبانها فى الطائفتين الجديدتان هما طــائفتى الأرثوذكسى والكاثوليك اللذين لا يزالان فى وقتنــا الحاضر ، واشارة واجبة انه لم يظهر فى ذلك الحين البروتستانت ، حيث أن البروتستانت لم يظهـــروا الا فى عام ١٥٢٩ ميلادية على يد زعيم المحتجين « مارتن لوثر » وقد كان الخلاف فى بادىء الامر خلافا فى الراى ثم تحول فيما بعد الى خلاف طــائفى مقيت تعدى حدود الجدل المألوف الى نصب حبائل المكيدة التى تدبرها كل طائفــة للأخرى ، ويمكن تفصيل الآراء المختلفة فيما يأتى حتى نزيد القارىء وضوحا :

اســباب الخــلاف :

١ — لا يعترف آريوس بلاهوت المسيح حيث يقول انه مخــلوق ليس مولودا من الآب وبذلك فانه لا يساوى الآب فى الجوهر ، وان البنوة مجازية فلا يصح ان تنسب بنوته للاله ، لان هذا يخالف العقل والمنطق .

٢ — ويقول نسطور : ان المسيح ابن الله له اقنومان ، والاقنومان هما عبارة عن النور المنبثق ، وان احد الاقنومين الهى والآخر بشرى ، فهو بالأول ابن الله والثانى ابن مريم .

٣ — ويقول يعقوب الاسحاقى ومعه أتباعه من اليعاقبة ان المسيح اقنوم واحـــد وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وكل من الطبيعة والمشيئة الهى ، ولذلك فهو الله الأب ضابط الكل خالق السموات والأرض .

ومن هنـــا نشأت الخـــلافات المذهبية فى تكتل يشبه الحزبية ، وتفرعت عن ذلك العقائد ، واختلفت النظم ، وتعددت الطرق فى اقامة الشعائر الدينية ، وكثرت الطقوس والرموز ، وتغالى البعض فى الراى لدرجة التعصب ، وتعددت الطرق فى اقامة الشعائر الدينية ، وتساهل البعض فى تعاليمه رغبة فى كثرة الأتبـــاع ثم انقسمت المسيحية فى العالم شرقية وغربية الى طائفتين كبيرتين ثم الى ثلاثة طوائف كبرى ثم تفرع من الطوائف حوالى سبعين طائفة منتشرون فى العـــالم ، وان قسموا حدوده فالأرثوذكسية اتخذت لها من الشرق ركيزة ، والكاثوليكية تأصلت فى الغرب ، حيث خرجت البروتستانتية ، وانى لا اغفل هنـــا الاشـــارة الى أن مصر وخصوصا فى الوجه القبلى استأثرت بالسبعين طائفـــة التى تفرعت عن الطوائف الكبرى .

تعـــريف الطوائف :

١ — الأرثوذكسية — ومعناها الصراط المستقيم أو الكنيســـة القديمة .

٢ — الكاثوليكية — ومعناها المنشقون .

ومن اثر هذا النظام الطائفى ، وجد النظام الكنائسى ، وتفـــرع الى ثلاث نظم فى تأدية الشعائر الدينية ، والنظم الثلاثة هى :

١ — نظام الاكليروس ، ويبـــدأ من البطريرك الذى يليه فى الرتبة المطارنة ، ثم الاساقفة ، القسوس اصحاب الامتياز ، ويسمون بالقمامصة ، والقسوس ذوى المرتبة البسيطة ، ويطلق عليهم اسم القساوسة فقط .

ويشترك فى كل مرتبة من هذه المراتب شروط خاصـــة لا مجـال لتفصيلها ، وهؤلاء جميعا اصحاب الراى والكلمـــة فى كل ما يدور حول الكنيسة ، وتلك هى الطائفة الأرثوذكسية .

٢ — النظام البابوى ، وذلك برأسه البـــابا والكرادلة ، وهم اصحاب الحق الأول والأخير فى تنظيم الكنيسة ، حيث يتكون منهم المجمع الكنائسى الذى يصدر ارادات بابوية سامية ، هى ارادات الهيـــة ، لأن البـــابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الارض ، وتلك الارادات لا تقبل الجدل أو المناقشة .

٣ — نظام ديمقراطى ، وهذا النظام الذى اتخـــذه البروتستانت فيما بعد ، ويسمى بالنظام الشعائرى المستقل ذاتيا وتعاونيا ، يتعاون اعضاؤه على القيادة والوعظ فقط .

عقـــائد المسـيحين :

يقول المطران ثاوفيلس المرقصى فى مخطوطه « بســـتان الأزهار فى تفسير الشعار » (١) أنه بعد وفاة المسيح بحوالى سبعين ســنة عندما بدأ مرقص الرســـول فى كتابة انجيله ، بدأ معه الخلاف فى الراى ، ثم تطور الخلاف حتى بلغ اشـــده سنة ٣٢٥ ميلادية ، عندما اجتمــع مجمع ضم جميع طوائف المسيحية فى الشرق والغرب ، واتفق الجميــع

---

(١) هذا المخطوط محفوظ بمكتبة الدير المحرق تحت رقم ١٠٣ من مؤلفات الآباء المرقصيين المتنيحين ، ومكتوب باللغة القبطية وكل صحيفة امامها صحيفة ترجمتها باللغة العربية الدارجة بخط المؤلف .

بعد المدارسة والمناقشة على الخطوط الرئيسية للمسيحية من ناحية العقائد والكتب المقدسة ، واتفقوا على المبادىء الآتية :

١ — الاعتراف بالثالوث الأب والابن والروح القدس شعارا للمسيحية .

٢ — يؤمن الكل بأن المسيح جاء لتخليص العالم من خطيئة آدم الموروثة .

٣ — المعمودية سواء برش المـاء او غمر جزء كبير من الجسم فيه بعد صلاة الكاهن على ذلك المـاء ، ركن من اركان المسيحية الاساسية ، وذلك نسبة الى تعمد المسيح على يد يوحنا المعمدان « يحيى عليه السلام » فى بحر الشريعة « نهر الأردن » .

٤ — المناولة ، وهى اكل القرابين رمز لجسد المسيح ، وشرب الخمر المعتقة اشارة الى دم المسيح المسفوك على خشبة الصليب ، وذلك اعتراف من المجتمعين بصلب السيد المسيح .

كما أجمع المجتمعون على الاعتراف بالكتب المقدسة التى يضمها الكاتب المقدس بعهديه القديم والحديث وما استقر عليه الرأى والرسالات المعترف بها ، وفى جملتها الكتب الآتية :

١ — « أسفار اليهود » العهد القديم ، أى التوراة ، من ضمن الكتب المعترف بهـا وتعتبر نصف الكتاب المقدس عند المسيحيين .

٢ — العهـد الجـديد ، ويضم الأناجيل الأربعة ، وهى متى — مرقص — لوقا — يوحنا ، وهى عبارة عن تاريخ المسيح ومعجزاته .

٣ — اعمال الرسـل ، وهى نبذ تحوى مجهول الرسل « تلاميذ المسيح » فى التبشير والدعوة .

٤ — الرسائل عبارة عن خطب وعظات القاها تلاميذ المسيح

فى الامم المختلفة داعين اهلها للمسيحية ، وتعتبر تلك الرسائل اساس علم اللاهوت .

٥ ــ رؤيا يوحنا اللاهوتى ، وهى عبارة عن رؤياه التى تحوى تنبؤاته .

اما البروتستانت الذين سبق الاشارة اليهم فقد جاءوا برأى يطابق راى آريوس الذى يقول ان الجوهرين لا يتساويان ، وقد قامت قومة البروتستانت على اساس الدعاية الى وجوب التقيد بما تحويه الكتب السماوية الرئيسية ، ويرجع وقت قيام البروتستانت الى عام ١٥٢٩ الذى رفضوا فيه تنفيذ أوامر الارادة البابوية ، وقد اهتموا بالمبادىء الأخلاقية من المسيحية قائلين : ان الدين ليس فى مجرد الطقوس ، وانما هو فى الاخلاق التى هى ثمرة الدين المسيحى الحقيقية .

ولم يعترفوا لا بالمعمودية ولا بالمناولة ولا بالاعتراف ، وان كانوا يعترفون بصلب السيد المسيح ، كما يعترف جميع الطوائف ان السيد المسيح تأنس وتجسد فى بطن مريم العذراء ، ثم جاء يدعو وختام الدعوة انه صلب على خشبة الصليب ليخلص دمه المسفوك العالم من خطيئة آدم عليه السلام .

ويمكن أن نختم هذا الموضوع معترفين أن المسيحية فى اصولها دين روحى سماوى جاء به المسيح من عند الله كما يقول الله تعالى فى القرآن الكريم « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه » ولكن الكهنة فى كلزمان ومكان كانوا يحتكرون الأسرار لأنفسهم ، تلك الأسرار التى لو كشفنا عنها لتبين انهم يعرفون الحق ويحيدون عنه ، وانه ليمنعنى من الدخول فى اسرار الكنائس عديد من الاعتبارات سوف تزول ويأتى الوقت الذى نفصح فيه عن كل شىء .

ونعود لقولنا بأن رجال الكهنوت قد احتفظوا بكثير من الأسرار ، وأباحوا الرموز للشعب ، وهذه سنة جرى عليها جميع الكهنة من قبل المسيحية وقد فصلنا ذلك فى الفصول السابقة .

وقد اشار السيد المسيح الى هؤلاء الكهنة عندما وجه القول الى الفريسيين والصدوقيين من اليهود قائلا لهم : لا تضعوا المصباح تحت المكيال » . وقد عنى المسيح بالمكيال الرموز والطقوس ، كما عنى بالمصباح الحقائق المستورة تحت الرموز والطقوس .

الفصل الثامن

الاســـــلام

لما كان كل شيء له اســـاس يقاس عليه مدى أهميته ، كذلك المبادىء مهما كانت فقد وضعت على أسس بصرف النظر عن قيمة تلك الأسس ســواء كانت ثابتــة القواعد أو منهــارة الأركان ، وكان لواضعى المبادىء والنظم والقوانين اهداف بنيت على تلك الأسس متخذين من الوســائل مطايا وامكانيات لتوصيلهم الى تلك الأهداف .

ولما كان خلق الانســان على أســاس : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد ان يطعمون » ، كانت العقائد الاســلامية تقوم على اسس واركان وقواعد بنيت على أســاس واحد هو التوحيد ، وكانت الركائز الخمس هى منبع الخطوط العريضــة التى بدأت بتعليم الناشىء دروســا تتفق والفطرة التى فطر الله عليها ذلك الناشىء .

ومن هنا تكون بداية الانطــلاق فى التبحر ، وقد آثرت ان أبدأ الكتابة من حيث يبدأ ناشىء الفطرة ، وذلك لن يتأتى الا بشرح موجز للأركان ، وذلك لكى يكون هذا الشرح فتحا للطريق وبداية للانطلاق وتهيئة للمصير

ولما كانت قواعد الاســلام الخمس فى ادائها غاية ، وفى تأديتها هدف لمن يؤديها ، فالغاية منها الوصــول الى الله والهدف منها ان يكون المؤدى عبدا مطيعا متعبدا حائزا لرضــا ربه ، فكان لا بد من البدء فى عقيدة الاسلام ان يبحث فى الألوهية والربوبية ، وهذا هو الهدف الأسمى .

الله :

لم يدع القرآن شائبة من ريب او شك فى مسالة الوحدانية الالهية،فقد علم المسلمين التوحيد الخالص الذى قضى على تيارات التعدد والشرك ، بل ذكر لله صفات دلت على قدرته ووحدانيته ، وانه ليس كمثله شيء فى الارض ولا فى السماء ، لم يكن الله والدا لولد ولا مولودا لوالد او والدة

« قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض » سورة يونس آية ٦٨ .

(وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ، ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا ، لقد احصاهم وعدهم عدا) سورة مريم آية ٩٣ ، ٩٤
(قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن كفوا احد) سورة الأخلاص .

واحد صمدى ازلى ، رب العالمين ، رب الناس ملك النـــاس اله الناس رب الفلق،رب البيت،رب المغفرة ، يدخل من كتبت لهم السعادة فى دين الله افواجا ، واذا ما دخـلوا وتمســكوا وآمنوا بدين الله الحى القيوم سبحوا بحمد ربهم واستغفروه انه كان توابا ، فاطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وتولدت فيهم العقيدة الصحيحة ، ورسخ عنــدهم الايمان أن الله :

(يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) سورة غافر آية ١٩
(عليم بذات الصــدور) سورة فاطر آية ٣٨
(وما كنا عن الخلق غافلين) سورة المؤمنين آية ١٧
(وسع ربنا كل شيء علما) سورة الأعراف آية ٨٩

ومن صفاته :
(هو الأول والآخــر والظــاهر والبــاطن وهو بكل شيء عليم) سورة الحديد آية ٣
(الحى الذى لا يموت) ســورة الفرقان آية ٥٨
(وهو الذى يحيى ويميت) سورة المؤمنين آية ٨٠
(كل شيء هالك الا وجهه) سورة القصص آية ٨٨

(لا يعزب عنه مثقال ذرة) سورة سبأ آية ٣
(وهو بكل خلق عليم) سورة يس آية ٧٩
(الا له الخلق والأمر) سورة الاعراف آية ٥٤

ومع اعتقاد المسلم فى صفات الله عز وجل ، فانه لا يمكن ان يؤمن ابدا أو يتسرب اليه مجرد التفكير ، ان تلك الصفات تعدد يشبه التعدد فى الثالوث البرهمى أو الثالوث البوذى أو الثالوث الصينى أو التاسوع المصرى القديم أو الثالوث المسيحى أو الثنائى الذى يقول : هناك اله للظلام أو اله للنور ، أو كما يقول القائلون ان هناك الهين احدهما اله الخير والآخر رب الشر ، انما يؤمنون ايمانا جازما أن تلك الصفات لرب واحد بعيد عن النقائص التى لا تجوز فى خلق الاله .

والمسلمون جميعا لا فرق بين طائفة وأخرى يؤمنون ان الصفات ان دلت انما تدل على أنه القادر على كل شىء ، الخبير العليم الرزاق ذو القوة المتين ، المنفرد بالوحدانية الفعال لما يريد ، الودود ذو العرش المجيد ، الرحمن الرحيم الكامل المنزه ، من قدرته الخلق والحياة والموت والارادة والعطاء والمنح والمغفرة والهداية ، لا شريك له ولا مثيل .

وبتلك العقائد انتشل الاسلام البشرية من عناصر الشرك والجهالة حيث ترك لمعتنقيه حرية العقيدة عن ايمان لا تشبه شائبة ، وافسح امامهم المجال للتفكير والتأمل والتطلع ، وبذلك تخلصت العقيدة من كل شائبة فأصبحت صافية نقية كالمرآة .

وعلى أساس تلك العقيدة وهذا الاعتقاد ، كانت أركان الاسلام الخمس هادفة الى التوحيد ، راسمة الخطوط العريضة التى تمكن المسلمين من شق طريقهم فى الحياة جامعين بين ايديهم مطالب الدنيا والآخرة ، واليك الأركان الخمس فى شرح موجز يدل على ما هدف اليه الاسلام مكنونا فى عقائده .

الشهادتان :

هما لب العقيدة ظاهرا وباطنا ، جهرا وسرا ، اولا هما شهادة أن لا اله الا الله ، شهادة بالوحدانية المطلقة بغير حدود واعتراف من

يشهد ان لا اله الا الله الملك القدوس المهيمن العزيز الجبـــار المتكبر سبحانه وتعالى عما يشركون ، شهادة تخرج عن ايمان صـــادق يجزم جزما تاما وحقيقيا يقضى على عقابيل التعدد فى كنه الاله حتى لا ينزلق العبد الى التجسيم الذى طالما وقع فيه غيره قبل الاســـلام وبعد كل دعوة للتوحيد بسبب تغلب الكهنة والقـــادة على فطرة البشر .

وهذه الشهادة حوت بجـــانب ما حوته من توحيد الله اعترافا بأنه لا عظمة لانســـان على أخيه الانســـان ولا كبرياء لمخلوق على مخلوق ، تطبيقا لما رواه النبى عن ربه ، حيث قال سبحانه فى حـــديث قدسى : « العظمة ردائى والكبرياء ازارى ، من نازعنى فيهما قهرته ولا أبالى » ، ولا فضـــل لعبـــد على عبد ، انما الكل عباد الله أمام ربهم ســـواسية كأسنان المشط ، وأن عظمة الانسان تتجلى فى عبادته الخالصـــة ومدى طاعتـــه لربه ، ولهؤلاء العظماء من بنى الانســـان امثال ذكرها الله فى القرآن الكريم مانحا اياهم صـــفات العظمة ، فقد ورد فى حقهم أنهم يذكرون الله قياما وقعـــودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض متجهين الى الله مناجين صـــاحب العزة والجبروت : « سبحانك ما خلقت هذا باطلا » . أولئك أولوا الألباب الذين اذا مروا باللغو مروا كراما ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا ســـلاما ، يبيتون لربهم ســـجدا وقياما ، آمنوا بربهم وتحروا فى ايمانهم رشـــدا ، اولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم .

أما الشهادة الثانية بأن محمدا رســـول الله ، واعتراف منهم بمقدار النبى الذى بعثـــه الله للناس كافة فأخرجهم من الظلمات الى النور باذن ربهم ، وهداهم الى صراط العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ، فقد قاد عبـــاد الأصنام ، وتجـــار النساء ووآد البنات ومحترف الحروب والمنازعات والسجد للات والعزى وهبل الى مواطن العبـــادة الصحيحة واوصلهم الى مراتب الانســـانية الكريمة ، وبذلك

اصبحوا داعين لربهم بالغداة والعشى يريدون وجهـه لا تعدو اعينهم عن أمر الله يريدون زينة الحيـاة الدنيا ، بعد ان كانت قلوبهم فى غفلة ، وكانوا تبعا لهواهم فكان أمرهم فرطا .

وهذه الشـهادة وهذا الاعتراف لا ينسى المؤمنين بنبوة محمد عليه الصـلاة والسـلام ، أن ذلك الرسـول ان وجبت طاعتـه فلا تجب عبادته ، وان محمدا بشر تجرى عليه سنة الحيـاة والموت ، كما تجرى على اى انسـان ، وان خير ما يقـال ويستدل به فى هذا المقام قول ابى بكر الصـديق ، وهو اول من آمن بمحمد عليه الصـلاة والسلام ، فقد خاطب الناس وهم فى هلعهم عند سماعهم خبر موت النبى صـلاة الله وسـلامه عليه : « ايها الناس من يعبد الله فالله حى لا يموت ، ومن يعبد محمدا فمحمدا قد مات » .

وكل شهادة المسلم لمحمد عليه الصـلاة والسلام لا تتعدى انه نبى ورسول ولا تعدو ان يكون ذلك النبى مرسـلا من الله فبلغ الرسـالة ومؤتمنا من ربه فادى الأمانة وترك المسلمين على المحجة البيضـاء ليلها كنهارها ، وذلك بنـاء على وحى الله لنبيه ، وقد ورد فى القرآن قول الله آمرا ذلك النبى .

(قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى ...) سورة الكهف آية ١٠١ .
(فان أعرضـوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ) سورة الشورى آية ٤٩

(قل اطيعوا الله واطيعوا الرسـول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسـول الا البـلاغ المبين) سورة النور آية ٥٤

(وما انت عليهم بجبار) سورة ق آية ٤٥

(لست عليهم بمصيطر) سورة الغاشية . آية ٢٣

(وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) سورة سبأ . آية ٢٨

(قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض) . سورة الأعراف آية ١٥٨

وليس معنى ما تقـــدم ان المسلم يؤمن بنبوة محمد وحده ، انما فرض على المسلم ان يؤمن بجميع الرســـالات وجميع الأنبياء والرســـل من يوم ان خلق الله آدم الى يوم أن بعث الله محمدا عليه الصـــلاة والسلام ، ورسالة محمد تختم الايمان بجميع الرســـالات التى سبقته ، وان دينه كان متمما لتلك الرســـالات .

« آمن الرســـول بما انزل اليـــه من ربه والمؤمنـــون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » سورة البقرة آية ٢٨٥ .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم وحن له مسلمون » سورة البقرة آية ١٣٦ .

وخلاصة الشهادتين أن الله منفردا بالوحدانية والصمدية والأزلية ، فلا ثلاثى ولا ثنائى ، بل لم يكن له كفوا أحد ، وان محمدا لم يكن الهـــا او ابنا لله ، او اقنوما من اقانيم ثلاثة او تسعة ، بل نبيا ورســـولا الى قومه يدعوهم الى عبادة الله الواحد القهار ، وان رســـالته متممة للرســـالات السماوية « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرســـل وكان الله عزيزا حكيما » سورة النساء آية ١٦٥

اقام الصـــلاة :

« ان الصـــلاة كانت على المؤمنـــين كتـــابا موقوتا » يصلى العبد حيث وأينما أدركه وقت الصلاة ، لا حاجة به الى امامة أو كهانة او وســـاطة ، وفى الصلاة صلة روحية بين العبد وربه ، يقف بين يدى ربه مستفتحا صـــلاته بتكبيرة الاحرام ، واعترافا منه بأن الله اكبر من كل شىء ، رحمن رحيم ، مالك يوم الدين اياه وحده يعبد وبه يســـتعين على الشدائد ، ويعوذ به من غضبه ، ويطلب منه الهداية الى الصراط السوى المستقيم ، وان ينأى به عن صراط الذين غضب عليهم فضلوا سواء السبيل ، ثم يقرا ما تيسر من القرآن متدبرا المعـــانى ســـابحا بلبه مع ما حوت الآيات من أوامر ونواهى ، ثم يفـــارق الدنيـــا الى ما لا وقت ويطير من الارض فيحلق مع روحانية القرآن فى جو ملكوتى نورانى ، فيستيقظ ضميره وتتطهر روحه مما الم بها من مشـــاغل الدنيا ورجس الحيـــاة .

واذا ذهب الى المسجد فى صـــلاة الجماعة ، فالامامة للأصلح باختيار جماعة المأمومين للامام بحيث لا ترتفع درجة الامام فى الصـــلاة الى درجة اعلا من درجة النبى الذى ورد فى حقه : ان هو الا بشير ونذير ، وليس عليهم بمصيطر .

ولكن الطاعة للامام واجبة ، فالسجود حيث يسجد والركوع انى ركع ، والقيـــام اذا قام ، وهــذه الطـاعة وهــذا النظــام وذلك التواضـــع الذى يوجب على الأمير ان يصـــلى ماموما لمن هو دونه فى المرتبـــة ، لا يمنع من رد الامام اذا حاد او خرج عن المشروع الذى أمر الله به .

وان الصلاة فى الاسلام تتطلب من المسلم أن يتخلص من كل ما يتعلق بالحياة الدنيـــا وقت الصلاة ، وان يتجه الى ربه بكليته فى خشـــوع وخضوع الفقير المحتاج الى الله الغنى الحميد ، وفى هذا المقـــام ورد عن السلف أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى مسلما يحك اعضـــائه فقال : والله لو خشع قلب الرجل لخشعت أعضاؤه .

وبجانب هذه الرياضـــة الروحية فللصلاة فوائد تتجلى فى الرياضـــة البدنية التى تعود على البدن بالصحة والنشـــاط والقوة ان أديت بركوع وسجود وقيـــام حسب أمرها ، وعبادة الاســـلام تجمع بين رياضـــة الروح ورياضـــة الجسد والعقل السليم فى الجسم السليم . فالاســـلام عبادة وقيادة وروحانية وعمل .

ايتـــاء الزكاة :

الزكاة فى فرائض الاســـلام منبه للفرد بحصـــة الجماعة فى ماله ، والمذكر له بأن عليه واجبات تقـــابل حقوقه على تلك الجماعة ، حتى يشـــعر انه ما استحق أن يولد من عاش لنفســـه فقط ، لأن من حق الجماعة على الفرد ان يعمل له ولغيره ، وما الزكاة الا تجربة واختبارا له فيما تهواه نفســـه من مال ومتاع .

وقد جعـــل الاســـلام دفع الزكاة فريضة على الغنى يدفعها من ماله عن رغبة للفقير والســـائل الذى له حق معلوم فى مال ذلك الغنى ،

وان هذا الحق المعلوم للسائل والمحروم لهو صدقة تطهر مال الغنى وتزكيه، « كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » ، وعلى قدر العطاء ومقدار ما شمل به هذا العطاء من راحة نفسية وما انطوت عليه النية فى توجيهه يضاعف الله لمن يشاء .

وبهذه الروح تسود المحبة بين المجتمع غنيه وفقيره ، فلا ضريبة تؤخذ قسرا من الغنى ، ولا حقدا ولا حسدا من الفقير ، انما المؤمنون اخوة كلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، مثلهم فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعت له جميع الأعضاء بالحمى والسهر ، وبذلك يكون المجتمع الاسلامى مجتمعا سعيدا تلاشت منه كل أسباب الفقر والحاجة ، مما يدفع عجلة الانتاج الى الأمام .

وقد جعل الاسلام الزكاة من اهم اركانه وقرنها دائما بالايمان بالله وبالصلاة ، وذلك لاهميتها العظمى التى تتجلى فى التوازن الاقتصادى وتقليل الفروق بين الناس وتقريب الطبقات ، وقد بلغ من اهتمام الاسلام بأمرها حدا بعيدا يظهر واضحا فى قول ابى بكر الصديق عندما امتنع الناس عن دفعها بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاربتهم عليه حتى يؤدوه » . وبهذه الروح كانت الزكاة عقيدة من عقائد الاسلام وركنا من اركانه الخمس .

صوم رمضان :

لم يقصد بالصوم فى الاسلام الامتناع عن الطعام لمجرد الجوع والعطش ، انما كان للصيام اهداف سامية ، وتلك الأهداف ذات شقين ، أحدهما روحى وهذا له فائدتان احداهما تعود على الانسان نفسه والأخرى تعود على المجتمع ، والشق الآخر دنيوى أخروى يعود على صحة الصائم بالقوة والنشاط .

فالفائدة الأولى من الشق الأول هى تنقية الصائم من الشوائب التى شابتها فبجانب حرمانه من ملذات الحياة التى تعود عليها ردحا من النهار تجده طول يومه يسبح ربه ويستغفره ممتنعا عن بذىء العمل وفاحش

القول ، متخذا مما روي فى حق الصــــوم ان كل عمل ابن آدم له الا الصوم فهو لله درســـا يهديه الى طريق ربه ، ويجد فى القصص القرآنى خير معين على تربية نفســـه تربية صحيحة على الصبر والاعتصـــام بأسوار العزيمة والبعد عن اللغو (انى نذرت للرحمن صـــوما فلن اكلم اليوم انسيا) — (قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا) .

والفائدة الثانية تكون اثرا من آثار الحرمان فيذكر المحروم وتأخذه الشفقة ويعطيه مما افاء الله عليه ، وبذلك يكون الصــيام وســيلة من وسائل الرحمة لهؤلاء الجياع والمحرومين ، ولذا كان تتويج شهر رمضان بزكاة الفطر حكمة من الحكم التى أوحى بها الصيام ، فقد اراد الله بها مشاركة الفقير للغنى فى عيده وفرحته وسروره .

اما الشق الثانى فمتفق تماما مع الطب الذى يأمر بعض من اتخمهم كثرة الطعام « بالرجيم » وهو الامتناع عن انواع معينة من الطعـــام ، واحيانا الامتناع عن الطعام كله مدة طويلة ، وقد سبق الاســـلام الطلب فى هذا المقام ، وذلك انه عندما أرســـل المقوقس عظيم القبط طبيبا ضمن هدايا أرسلها الى الرســـول صلى الله عليه وســـلم ، فتقبلها جميعا الا الطبيب فقد رده قائلا صلوات الله عليه ما معناه : لا حاجة لنا به لاننا قوم لا ناكل الا اذا جعنا واذا اكلنا لا نشبع . اذن فالصيام صحة للبدن حيث تستريح المعدة راحة تامة ، مما اتخمت به الطعـــام احد عشر شهرا ، ولهذا قيل عن الصيام انه تاديب بالجوع ، وحرمان مشروع فيه لله خضوع وخشوع .

الحج :

شرع الحج فى الاســـلام على أسس ســـامية ، ولأهداف عليا ، فلو رجعنا الى التاريخ القديم نجد ان الله امر نبيه ابراهيم عليه الســـلام ان يبنى البيت العتيق فى المكان الذى اســـكن فيه ذريته : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » سورة البقرة آية ١٢٥ .

وهذا الامر كان بناء على دعوة دعاها ابراهيم عليه السلام : « اذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير ، واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رســولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم) سورة البقرة الآيات ١٢٦ ، ١٢٩

اذن فالحج صلة روحيــة بين شجرة الأنبياء ، وجنة الرســالات ، وهمزة الوصــل بين ملة ابراهيم وملة محمد كل منهما حنيفا من المسلمين ، فكان الحج تكريما من الله لابراهيم الذى قال فى حقه : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفــا مسلما وما كان من المشركين » سورة آل عمران آية ٦٧ ولكى يبلغ التكريم مداه فقد استجاب الله دعاء ابراهيم « ربنا انى أســكنت من ذريتى بواد غير ذى ذرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصــلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » سورة ابراهيم آية ٣٧ .

فشرع الحج وذلك وعد من الله الذى كفل أن يجعل افئدة من النــاس تهوى الى مكان ذرية ابراهيم حيث أمره (واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضــامر يأتين من كل فج عميق) سورة الحج آية ٢٧ .

فالمسلمون يأتون من كل فج عميق يكونون مؤتمرا اســلاميا كبيرا يتبادلون فيه الراى ، ويتذاكرون احوالهم ويتابعون الخطط التى تعود على الأمة الاســلامية جمعاء باليمن والبركات ، فتتمثل فى الحج الأخوة الانسانية على بعد الأديار وتنائى الأقطار واختلاف الشعوب والأجناس فيلتقى المسلمون فى المكان التى صــدرت منه الدعــوة فتزول الفوارق والأحقــاد ، ويحل محلها الحب والوئام ، كان يضحى بذاته فى سبيل المجموع ، لانه جاء الى المكان الذى ضحى فيه ابراهيم بابنه اسماعيل وتله للجبين لولا رحمة الله الذى لا يرضى أن يسفك دم البشر ســواء كان على الصليب أو بالسكين ، وخصوصــا من استسلم لابيه طاعة لربه قائلا « افعل ما تؤمر ستجدنى ان شــاء الله من الصابرين » سورة الصافات آية ١٠٢ .

وبهذا ولهذا كانت الأركان الخمس هى عقائد المسلمين التى بنيت على التوحيد الخالص مع الاخاء بين البشر والمســاواة بين الخلق ، ونظمت حياتهم فى الدنيا والآخرة .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيــا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفســاد فى الارض » ســورة القصص . آية ٧٧

الفصل التاسع

ميزان العقائد والأديان

مما تقدم يمكن للقارىء أن يوازى بين العقائد فى جميع الأديان ، وفى هذا التوازن ومن المقارنة يستطيع أن يدرك أن العقيدة الاسلامية جمعت بين حيــاة المسلم فى دار ممره ودار مقره ، وأن ما يفخر به المسلم أنه حر عقيدته التى بنيت على التفكير المطلق والتأمل الحر والبحث عن الحقائق بدون خضــوع للهيكل وطقوســه ، أو خشــوع للصنم وقرابينه ، أو وقوف أمام المذبح ومحرقاته ، فلم يكن دينه تفضلا من كاهن يمن عليه به ، أو سجوده لأيقونة أو ركوعه لوثنه ، كما لم تكن عبادته وقفا على شعائر أو مراسم داخل المعبد مدى حيــاته .

وقد كانت الأديان قبل الاسلام عبارة عن كهانة وطقوس ومراسم ورموز كلها تشير الى الوثنية بكل معانيها ، كما كانت تأخذ بيد صــاحبها الى تعدد الآلهة وتعدد الكهنة وتعدد الشعائر مما انتهى بأهل الأديان الى حالة يرثى لها من الجمود الذى أرغمهم وتغلب على فطرتهم حتى تحلوا عن التفكير السليم فعظموا الصــور والتماثيل وربطــوا كل تصرفاتهم التعبدية بالمعبد والكاهن ، فلم يكن لهم أن يبرموا أمرا من أمور الدين دون أن يكون الهيكل وكاهنه صــاحبى الآمر والشورى والكلمة الأخيرة فى هذا الرأى ، حتى أصبح المتعبد وكأن المعبد لازمه من لوازم حياته العقائدية ، حيث لا تتم له عبادة ولا يستقيم له أمر ، ولا يصح له وصل ، ولا يملك شفاعة عند الآلهة ولا تستجاب له دعوة دون الكاهن .

وقد اتخذ الكهنة من عقيدة الناس وسذاجتهم طريقا للتجارة بالأديان ، وانشأوا القاعدة القديمة المشهورة التى جعلت الكاهن نائبا لله والملك ظل الله فى أرضه ، بل الهو الكهنة أنفسهم تاليها تاما وطالبوا شعوبهم بعبادتهم ، ففى البداية كان الاله واحدا ثم الاله ممثلا فى قوى الطبيعة ومظاهرها ، ثم حل الاله فى الكهنة والملوك أحياء وأموات .

فمن الأديان السابقة يمكنك أن ترى الهنود مثلا وقد اعتقدوا أن الاله الذى يرى نحت اسم ابراهما ثم تطورت الى الثالوث براهما ــ فشنو ــ

سيفا ، ثمتطور الى عبادة الكهنة ، ثم عبد الناس المقربين الى الكهنة ، وعلى هذا المثال يمكن معرفة العبادة فى الأديان الأخرى أنها تشابهت فى العقيدة .

ثم جاءت الأديان الكتابية مبعوثا بها رسل من عند الله مبشرين ومنذرين ، ولكن الكهنة اليهودية والفريسيين والأحبار والصديقيوم كما هو واردا فى التوراه شوهوا جلال الدين واخترعوا وابتدعوا مما أخرج الدين السماوى الجليل الى حلبة المنافسات على النبوة والتجارة التعبدية حتى انتهوا الى عبادة الأصنام والأوثان .

ثم جاءت المسيحية تدعو الى الفضيلة فى اسمى مراتبها ومعانيها ، ثم خرج بها الكهنة ورجال الاكليروس الى شرك ظاهر يتمثل فى التعدد الممقوت الذى يكمن وراء التثليث وتأليه القديسين والشهداء ، ثم انحدروا بها الى حضيض العقيدة فأصبح القسيس وكيل الله على الأرض ، ما يحله القسيس فى الأرض يحله الله فى السماء وما يربطه على الأرض يربطه الله فى السماء ، حتى تحولت المسيحية التى جاء بها المسيح لتخليص العالم من ترهات اليهود عن طريقها الذى رسمه الله الى طريق رسمه القساوسة والكهنة .

ولما بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بدينه الاسلام ، وشهادة الوحدانية بغير حدود ، دين التحرر الوجدانى من ربقة الاستعمار الكهنوتى ، وخرج المصباح من تحت المكيال فظهرت الحقائق واضحة ، وطمست الرموز والطقوس ، عرف المسلم ان الله معه اينما حل واينما ارتحل وحيثما كان لا يفارقه لحظة فى أى مكان او زمان ، يناجيه وهو اقرب اليه من حبل الوريد ، يجيب دعوة الداعى اذا دعاه : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » البقرة ١٨٦ .

الله قريب من عبده سواء كان العبد فى يقظة أو منام ، وان عبادة المسلم دائما لله سواء كانت فى الفيافى والقفار او على ظهر السابحات فى البحار والأنهار ، او على رءوس الجبال ، او فى جوف الأرض ، او فى أجواء الفضاء ، تلك عبادة عبد الله الواحد الذى علم عباده (فأينما تولوا فثم وجه الله) بجانب هذا يعلم العبد تمام العام ويوقن تمام اليقين انعبادته موجهة الىرب واحد لا شريك له: «قل ان صلاتىونسكىومحياى

ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين » سورة الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

والمسلم فى صومه وحجه وزكاته لا يحتاج الى كاهن يبارك له تلك العبادات ، أو يرسم له طريقها ، فهو يعلم كيف ولمن يؤديها ، لانه بفطرته عرف من خلقه ورزقه ومن اليه يرجع الفضل كله ، ويدلك على هذا نشأة الاسلام فى بيئة بدوية بدائية بعيدة عن الثقافة والمدنية ، فكانت احكامه اقرب الى البساطة الفكرية فاستساغها أصحاب القلوب السليمة بعد أن سئموا الرموز والطقوس ، كما تذوقوا حلاوة خواص الاسلام التى يمتاز بها عن غيره من الأديان ، والتى تتلخص فى عدم اعتراف هذا الدين الجديد بطبقة من الكهنة التى تحتكر شعائره ، وعلاقة الفرد فيه متصلة بخالقه مباشرة دون وسيط ، والأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى .

وكذلك النبى محمد الذى بعثه الله رحمة للأمم كافة ، حيث أتى بدين الاسلام لم يدع أنه فوق البشر ، ولم يذكر الله فى التنزيل انه كان شيئا غير انسانى ، فما هو الا بشير ونذير ، ورسول قد خلت من قبله الرسل ومذكر ليس بمصيطر ، ويكفى المسلم ان يقرأ فى القرآن (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) — (انما انا بشر مثلكم) — (فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر الا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر) .

وليس بمستغرب على الانسان أن يحدد مركز النبى ووظيفته ، وذلك درءا للشبهات التى وقع فيها رجال الدين ، وكانت سببا من أسباب انهيار الأديان ، وانصراف الأتباع عن دياناتهم ، والبحث عن أديان اخرى حتى جاء الاسلام فدخل فيه الحائرون افواجا وسبحوا بحمد ربهم فوجدوه غفورا توابا .

وتاكيدا لسلامة العقيدة لم يترك القرآن فرصة للمتلاعبين ، حيث لم يجعل عبء الرسالة على محمد وحده او على احد دون احد من المسلمين ، بل طالب الأمة الاسلامية جمعاء أن يكون كل فرد فيها رجل دين ، فقد أمر الاسلام جميع المسلمين ، لا علماء الدين فقط ، بأن يكونوا دعاة آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) سورة آل عمران آية ١١٠ . وقد قال نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام مكلفا أتباعه بأن يقف كل منهم جنديا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر « من رأى منكم

منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهذا اضعف الايمان » .

ورجل الدين فى الاسلام مهما بلغت منزلته ، ومهما بلغت به التقوى ومهما وصل الى الورع لا يتعدى أن يكون عبدا لله ، لأنه له فى رسول الله أسوة حسنة حيث أنه لا يمكن أن يكون أعظم من محمد الذى اتى بهذا الدين ووصفه الله انه عبد من عباده (سبحان الذى اسرى بعبده ...) **كما ان رجل الدين لا يمكن** أن يأخذه الغرور فيدعى انه صاحب الدين ، ولذا كانت له الحصانة حيث اوجب عليه ان يقول فى قنوته « أشهد ان لا اله الا الله واشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

كيف لرجل الدين وهو يشهد أن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم عبد الله ورسوله يظن انه المسيطر على هذا الدين او انه يمتاز عن باقى الأمة الاسلامية فى المعاملة أمام الله ، والكل عند الله على قاعدة واحدة (ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير) سورة الحجرات آية ١٣ .

وقد حرم الاسلام على المسلم الايمان بالوساطة او الشفاعة (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

كما حرم الاسلام التوسل والدعاء لغير الله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) . سورة فاطر ١٣ ، ١٥

وقد اشرك الله المسلمين جميعا فى الدعوة وجعلهم خلفاء فى الأرض ، يبشرون بدعوة الله ويدعون اليه على بصيرة كما دعاهم محمد من قبل (قل هذه سبيلى ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى) سورة يوسف ١٠٨ .

وليس فى الاسلام خطيئة موروثة تحتاج الى التكفير عنها بصلب نبى او ابن لله ، بل آمن المسلم أن كل انسان مسئول عن ما اقترفه يحاسب عليه يوم (لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده

شيئا) — (يوم يفر المرء من اخيـه وامه وابيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) — (وكل انسـان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك عليك اليوم حسيبا) .

وبالميزان تخرج كفة العقائد فى الاسـلام راجحة ، فالله الذى يؤمن به المسلمون اله واحد لم يكن له شريك فى الملك سبحانه وتعـالى عما يشركون ، وان الاسـلام قد أوضح الطريق أمام المسلم الى عقيدة صحيحة فى الذات الالهية كما ارشـده الى عقيدة سلمية فى الهداية النبوية ، وربى فيه عقيدة الانسـانية لا تعلوها عقيدة ، وان احكام الاسلام لا تعوق المسلم ولا تقيده بقيود مخترعة او اغلال مصطنعة .

الباب الثانى

الانســـان والانســـانية

الفصل الأول

الانســان فى الأديان

ان الأديان التى سبقت الاسـلام لم تحدد مركز الانســان تحديدا صحيحا يليق بمركز الانسانية،ولم تدع للانسان الوسائل التى تمكنه بالشعور انه عضو فى المجتمع مكلف بتأدية ما خلق له ، فيقوم بما وضع على عاتقه من واجبات لقــاء ما له من حقوق ، وذلك كان سببا قويا لاختلاط الواجبات بالحقوق ، وذلك لان الاديان جعلت الانسان كائنا مسيرا غير مخير ، فأصبح كآلة صماء تعمل دون أن يكون لها ارادة .

فالهنود يقولون ان الانسان لا اختيار له فى الحـالة التى يولد عليها ، لانها مكتوبة عليه قبل ولادته من الأزل وانه محكوم عليه بالانفصـال من عداد الخلق ، ولن يكتب عليه شقاوة أو يكتب له نعيم قبل أن يذهب الى عالم الفناء (الترفانا) المطلق من قيود الوعى .

والديانة الفارسية (المجوسية) تركت الانســان ومصــيره المصير عليه مدفوعا بغير ارادته ، فان صــادفه اله الخـير وغمره بنــوره يكون خيرا مختارا ينعم عليه بالحيــاة السعيدة فى حياته الدنيا والآخرة ، أما اذا التقى به اله الظلام وطواه فى شره دون أن يكون له رأى فى ذلك ، مرغما على أن يدخــل الظلام فيشمله اله الشر ويطرد من النور وتكتب عليه الشقاوة ويدرج فى عداد التعساء البائسين الى أبد الآبدين دون ذنب جناه ، أو جريرة فعلها ، أو خطيئة ارتكبها ، كما أن ذلك الانســان الذي صادفه اله النور يستحيل عليه الدخــول فى الظلام مرة أخــرى حتى ولو ارادت له شهوته وجره ســوء فعله الى الظلام ، وذاك الذى زج به فى الظلام ، ظلما ، رغم ارادته لا يمكن ان يلمس النور والخير

مهما حاول التقرب الى اله النور ، ومكتوب على كفاحه وجهـاده فى هذا السبيل الفشل الذريع .

اما اليونانيون فقد آمنوا باله النقمة (نمسيس) ربة النقمة ، التى لا تعترف باستقلال الانسـان استقلالا ذاتيا ، فذنب غيره محسـوب عليه ، وهو محاسب بذنب غيره فتحاسبه على ذنب جاره ، وتؤاخذه بجريرة قريبه وبنى جلدته ، وبهذا يكون الانسـان مدفوعا الى مصير محتوم لا يملك لنفسه دفعا لظلم نزل به ، او دفاعا عن نفسـه من اعتداء وقع عليه مثله كمثل السائمة .

اما الديانة المصرية القديمة فقد كرمت الانسـان تكريما الا انه كان تكريما محدودا ، فهى بالنسبة للأديان التى ذكرناها خير ، فقد جعلت حساب الانسـان عن عمله فقط ، حيث يقف بعد مماته امام محكمة ايزيس واوزوريس التى تحاكم الموتى ، لتحاسـبه عما قدمت يداه ، وان كانت نتيجة الحسـاب متعلقة برضـاء الكهنة او سخطهم على ذلك الانسـان .

وقد اخضع البابليون الانسـان لطالعه يوم خروجه من بطن أمه ، فان اشرق عليه نجم السعود فهو سعيد ، وان ظلله نجم منحوس ، والسعد والنحس يلازم كل منهما صـاحبه طول حياته وبعد مماته ، كما يجوز للمنجمين والمشعوذين والكهنة ان يتحكموا بالوساطة والشفاعة فى مصير الانسـان ، وذلك بتقديم القرابين والذبائح والمحرقات للأفلاك والنجوم ، فمن قدم الرشـوة والترضية للكاهن تكتب له السعادة فى عداد من صادفه النجم السعد حتى ولو قابلهم طالع النحس من قبل ، ومن لم يقدم ما فرض عليه كتب منحوسـا حتى ولو كان نجمه سعيدا يوم ولادته .

والاسرائيليون يعتقدون ان هناك شعبا اختاره الله ، وان هنـاك اناسا رضى الله عنهم قبل ان يروا النور بأعينهم ، كما ان هناك خلقا كتبت عليهم اللعنة وحق عليهم العذاب ، وكتب عليهم الشقاوة .

فأما الذين شملتهم النعمة فأولئك من ذرية يعقوب ، والذين عمتهم النقمة هم ابناء عيسـو اخى يعقوب ، لأن الله قد بارك يعقوب ولعن عيسو وهما ما يزالان جنينين فى بطن امهما ، وبهذا قد حكم على الانسان جنينا وفى مهده بالبقاء فى العذاب المهين حتى لو حاول التكفير عن الخطا

بالايمان ، وذلك لأن الربيهوه اله يفتقد ذنوب الآباء فى الابناء حتى الجيل الثالث والرابع .

ثم جاءت المسيحية بمثلها العليا ، ولكن ارادة الكهنة جعلتها تتفق مع الأديان السابقة على حساب الانسان بجريرة غيره ، فقد جعلت الانسان محاسبا بجريرة أصل خلقته ، فربطت بين خطيئة آدم وذريته الى يوم القيامة ، مما أوقف الانسان موقفا لا يحسد عليه بسبب ما ورث من وزره ابيه الأول آدم ، فما باله بوزر جده الذى ورثه ابوه ، ثم ورث هو وزر ابيه واوزار أجداده السابقين ، هذا خلاف خطيئة آدم الباقية والتى لا بد لها من كفارة ، وليت الكفارة فى مقدور الانسان

فمقدرة الانسان عاجزة عن أن تقدم ابنا على عود الصلب ، حتى لا يذهب بجريرة آدم أبناء الجنس البشرى كله .

وما دامت هذه حياة الانسان وقيمته الغير مستندة الى شىء يذكر فهو سليب الارادة كشجرة اللباب لا ترتفع الا اذا استندت على غيرها ، اسير فى أيدى الكهان والترفانا واله النور واله الشر والنجم السعيد والنجم المنحوس ، تحت رحمة نمسيس ربة الثأر ، منتظر على احر من الجمر تقرير مصيره على يد محكمة ايزيس وآزوريس .

ولا بد للانسان من البحث عن سلالة طيبة حتى يكون مباركا كسلالة يعقوب فيطمئن باله ، لانه مبارك من الله ، والويل له ان كان من سلالة عيسو فهو ملعون ، وما دام قد لعن دون ذنب جناه ، فله الحرية أن يترك لنفسه هواها غير آبه بالقيم الانسانية أو المثل العليا لأنه مهما عمل من حسنات فهو مكتوب من أهل النار بسبب اللعنة التى نزلت على اصل سلالته وهو ما يزال نطفة أو علقة .

حتى لو كان هذا الانسان من سلالة يعقوب المبارك ، فماذا تنفعه البركة وهو من سلالة آدم الذى عصا وكان عصيانه وبالا على ذريته فأورث ذلك الخاطىء بنية من بعده الذل والهوان والبعد عن رحمة الله .

اذن فالانسان فى الأديان قبل الاسلام كائن مبلبل الأفكار مزعزع العقيدة مهزوز الأركان ، لا يملك لنفسه ضرا او نفعا ، وليس لحياته تبديلا او تحويلا ، يعيش فى هواجسه حتى يقضى عليه فى زوايا الخمول والنسيان ، وبذلك يكون معطلا عن القيام بدوره فى محيط الانسانية ، يحيا بلا هدف ويعيش بلا ضمير ، ولذلك عاش جل أيامه

عليه تكليف ولم يكن له اى وجه من أوجه التشريف ، قضى كل ايامه تحت سيطرة الكهنة والملوك والقادة يرسف فى اغلال التحكم البغيض .

فالهنود قسموا الشعب الى طبقات تتدرج الى اسفل حتى تصل الى درجة المنبوذين ، وهذا مثل يضرب على باقى الديانات الوضعية ، حتى الديانات السماوية ، فقد كان كهنتها المتحكمين فى الشعب فقسموه الى فئتين فئة مختارة وفئة غير مختارة ولو تطلعنا الى الأناجيل لرأينا قصة امراة سارت خلف المسيح تبغى البركة فحرمت عليها لانها ليست من خراف بنى اسرائيل الضالة ، ولأنها كانت سامرية او امية .

ظل الانسان هكذا حتى جاء الاسلام فعرفه نفسه وتلا قول الله : (ولقد كرمنا بني آدم) ومن هذا عرف الانسان أنه خلق فى أحسن تقويم .



الفصل الثانى

الانسان فى الاسلام

الدارس بغير تعمق فى الاسلام يجد أن موقف الانسان فى الدين الاسلامى غيره فى باقى الأديان ، فقد جاء الاسلام من أجل الانسان والانسانية ، شأنه فى ذلك شأن باقى الرسالات الربانية ، ولكن الاسلام كان تتمه الرسالات فلم يكن فيه الثغرات ولم يسمح لرجال الدين أن يخرجوا به عما جاء به ومن أجله .

فقد خلق الله الانسان بأسمى الأهداف ، ولأجل المهام ، خلقه الله ليكون خليفته فى أرضه ، فقد ورد فى قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة آية ٣ (واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة) والخلافة فى الأرض تحتاج للمؤهلات التى ميز الله بها الانسان ، ولو دققنا النظر فى تلك المؤهلات لوجدنا أن قوامها مزاج من المادة والروح ، فالمادة تتجلى فى قوله عز وجل فى سورة ص آية ٧١ (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين) وتلك المادة جاءت من طبيعة الأرض التى خلق الانسان من أجل عمارتها ، أما الروح فهى لطيفة من سر الله سبحانه وتعالى تكمن تحت قوله عز وجل فى سورة ص آية ٧٢ (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) .

ومن هنا كان سر تكوين الانسان ، فقد سجد الملائكة له كلهم أجمعون الا ابليس الذى ابى واستكبر فكان من المطرودين ، وخلق الانسان بقدرة العلى الكبير من هذا المزاج ، فتفاعل سر الروح مع طبيعة الأرض فكان الانسان تحت تأثير عاملين . اولهما الأثر الروحى فى حياته حيث كان دائما نزاعا الى السمو فيتطلع الى ربه ، وثانيهما أن الانسان كان ميالا الى الانجذاب والرجوع الى طبيعته الأرضية التى تحبب اليه النزول الى الارض والانغماس فى متعتها الحيوانية .

ولذلك نشأت عند الانسان غريزتان : أولهما حب البقاء والخلود ، وذلك مقتبس من مدخل الشيطان للانسان وذلك واقع تحت قول ربنا

وخلق الانسان بغرائزه الحيوانية وامداده الروحية ، لم يكن كفيلا بمعاونته على تأدية رسالته فى الأرض ، ولذلك اقتضت حكمة الله عز وجل ان تجعل منه قوة انشائية مباركة ، تقوم بما كلفت به على الوجه الاكمل على هدى من الله ، فاعطاه الله الموهبة التى جعلته مستعدا لقبول العلم والمعرفة والتفكير والانشاء والتعمير وتبطل احتجاج الملائكة على خلق ذلك الانسان عندما جاء على لسانهم فى سورة البقرة آية ٣٠ « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى أعلم ما لا تعلمون » .

وكان تشريفا لذلك الانسان ونصرا له من الله على هؤلاء الملائكة المقربين ما جاء فى سورة البقرة آية ٢٣ « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » .

ولم يكن عصيان آدم وخروجه من الجنة لهوا او عبثا ، فقد خلق آدم لعمارة الارض ، ولذا لم تكن حوادث اغراء الشيطان له واستدراجه الا امتحانا لكى يرى الانسان ما هو عليه من الضعف البشرى والعجز أمام شهواته ونزواته ، ولذلك يتولد عنده الشعور بأنه دائما محتاج الى من يهديه ويرشده ويرحمه ويغفر له ، وهنا يكون سر التجلى للطيفة الربانية فى الانسان ، ويحسم القرآن الكريم هذا النزاع بقول الله عز وجل فى سورة طه آية ١٢١ ، ١٢٢ « وعصا آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » ثم يوضح القرآن شعور آدم بالخطيئة واستغفاره ربه وغفران ربه له « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم » سورة البقرة آية ٣٧ .

ومع قبول الله سبحانه وتعالى توبة آدم وغفرانه له ، لم يمنع ذلك من تنفيذ ارادة الله سبحانه وتعالى واخراجه وزوجته من الجنة الى الأرض التى خلق لها ، ومنها ثم يعود اليها ثم يخرج منها تارة اخرى « منها خلقنا كم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى » والى حيث هبط الشيطان الذى كان سببا فى اخراجهما ، والذى استحكم العداء بينه وبين الانسان من يوم أن رفض السجود لذلك الانسان قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » سورة طه آية ١٢٣ .

اذن فالانسان والشيطان قد خرجا الى الارض وكل منهما يضمر للآخر حقدا ، فالشيطان لا ينسى انه اخرج من الجنة وهبط الى الأرض بسبب

تبارك وتعالى فى سورة طه آية ١٢٠ (قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) ومن حب البقــاء والرغبة فى الخلود عرف الانسان الفرائز الجنسية ، وذلك بظهور اعضـــاء التناسل التى ظهرت له بعد اكله من الشجرة المحرمة عليه ، وذلك ما بينه الله فى ســـورة الأعراف آية ٢٢ (بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) .

والغريزة الثانية التى نشـــأت مع حب البقاء ، كانت وليدة الأثر الروحى والجانب الالهى ، وهذا واضح من التوبة عقب الخطيئـــة ، فالجانب الالهى يشرق ، ويحتوى الانســـان ميل جارف الى النزوع الى الله حين يجد نفســـه فى حاجة الى ربه فيقبل عليه فى ذلة وخضـــوع مستغفرا تائبا منيبا متأسفا نادما على ما فرط فى جنب الله وما وقع منه من الذنوب والآثام ، وان لأوضع الصـــور هى لجوء آدم الى ربه بعد وقوعه فى المعصية ، وذلك ما ورد فى قول الله عز وجل فى ســـورة الأعراف آية ٢٣ على لســـان آدم وحواء (قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

وكان لله حكمة ســـامية فى خلق خليفته من المزاج المركب من الروح والمادة فعلى قدر ادراكنا يمكننا الاستنباط والخروج بالهدف من وراء تلك الحكمة ، وذلك يمكن تلخيصه فى سببين : أولهما أن الانسان اذا ما اخطأ وانجذب الى أرضته فهو بذلك يميل الى اصله الذى خلق منه ، وهو الصلصال الحمأ المسنون — والصلصال عبارة عن الطينة النتنة من الأرض ، ومن اصـــل الانســـان يتعلم ذلك المخلوق فلا يتكبر ولا يطغى ، ولا يمشى فى الأرض مرحا ، وتكون له الحصـــانة التى تجله لا يضل فيما يسعى ، لأنه عرف انه موصـــوف بالنقصان وان خالقه موصوف بالكمال ، فلا يعترف بما جاء به سفر التكوين ، وهو من أسفار بنى اسرائيل أن الله خلق الانســـان على صورته ، فلا يصـــدق ذلك الضرب من ضروب اللهو ثم يؤمن أن الكمال لله وحده وان الله وحده وأن الله ليس كمثله شىء فى الارض ولا فى السماء ولا شبيه ولا مثيل .

وثانى السببين أن الملائكة قادرون على فعل الخير فقط ، لا عمل لهم الا التسبيح والتهليل والتكبير ، وأن الانســـان بمزاجه هذا قادر على فعل الشروالخير ، وبذلك يكون خلقه ممتازا فيتمكن من القيـــام بالرسالة الملقاة على عاتقه ، وأن رســـالة تعمير الأرض لأمر جليل يحتاج الى ذلك الانســـان الذى صنعته القدرة الالهية من هذا الخليط الذى جعل الانسان معدا اعدادا يتكافأ مع حكمة الله عز وجل الذى خلقه لما يسر له .

الانسان ولذلك فهو يتربص له ريب المنون ، قال : « فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد اكثرهم شاكرين » سورة الأعراف آية ١٦ ، ١٧

والانسان يعتبر الشيطان عدوا له ، فقد اخرجه من الجنة بعد أن اغوى فيه طبيعته السلبية الميتة « وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » فأراد ان يسترد اعتباره متخذا من طبيعته الايجابية الحية ، طبيعة الروح « ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » سورة السجدة آية ٩ « سلاحا يبطش به بذلك العدو اللدود الذى حرمه منزلته .

والانسان فى صراعه مع الشيطان يعمل ما فى وسعه ، ويبذل اقصى طاقته للانتصار عليه ، وهذا الصراع من جانب الانسان تحقيقا لارادة الله عز وجل « وما خلقت الجن ولانس الا ليعبدون » فيحافظ على المرتبة العظمى التى كانت تتطلع اليها الملائكة فيستعيذ بربه من ذلك الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .

وهكذا يظل الانسان بين الكر والفر ، تارة ينتصر على الشيطان وتارة يهزم امامه ، فاذا ما تغلبت طبيعته النورانية الروحانية واهتدى كان من المنصورين ، وبذلك يدحض حجج الشيطان وتتمشى فيه روح الجندى لله ويستل سيوف النصر لله فوق هامات أعداء الله « ان تنصروا لله ينصركم ويثبت اقدامكم » .

وان تغلبت على الانسان حيوانيته وجذبته الارض اليها وزين له حب الشهوات ، سار مع الشيطان فى غوايته ، فى تلك الحالة كان من المنهزمين وبذلك يكون خصما لرب العالمين ، ويخضع الخضوع الكلى للشيطان ، ويحق عليه أن يوصف بصفات ذكرها الله عز وجل فى القرآن الكريم ، وبذلك تكون قدتخلت عنه اللطيفة الربانية وتطلق عليه هذه الصفات .

« ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » سورة الاسراء آية ١١ « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » سورة الانعام آية ١١٢ .

« انه ليئوس كفور » سورة هود ٩ .

ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا » سورة المعراج الآيات ١٩ ، ٢١

« ان الانسان لظلوم كفار » سورة ابراهيم آية ٣٤ .

« انه كان ظلوما جهولا » سورة الأحزاب آية ٧٢ .

« وكان الانسان أكثر شيء جدلا » سورة الكهف آية ٥٤ .

« أن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » سورة العلق آية ٦ ، ٧ .

« ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد ، وانه لحب الخير لشديد .. » سورة العاديات الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

« ان الانسان لفى خسر » سورة العصر آية ٢ .

« بل يريد الانسان ليفجر أمامه » سورة القيامة آية ٥ .

« وكان الانسان قتورا » سورة الاسراء آية ١٠٠ .

« وخلق الانسان ضعيفا » سورة النساء آية ٢٨ .

وسواء كان الانسان متبعا لطبيعته الالهية أو طبيعته الحيوانية ، فهو فى الاسلام حر مكلف يستطيع أن يصعد قمة المجد الذى هيأه له ربه وبهذا التكليف يكون الانسان قد كرمه ربه حيث جعله مخيرا فيما يذهب اليه ، فقد حمل ما عجزت عن حمله كل من السماوات والأرض والجبال « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الانسان » . سورة الأحزاب آية ٧٢ .

وذلك بعد أن بين الله الخير والشر للانسان وكمله بالامكانيات وأحسن خلقه .

« ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة » سورة البلد الآيات ٨ — ١١ .

وبذلك كان الانسان حرا فيما يختاره لنفسه جنة أو نار تكريما أو اهانة « بل الانسان على نفسه بصيرة » سورة القيامة آية ١٤ .

فهو محاسب عما كلف به .

« ينبؤ الانسـان يومئذ بما قدم واخر » سـورة القيامة آية ١٣ .

« وكل انسـان ألزمناه طائره فى عنقه » سورة الاسـراء آية ١٣ .

كما بين القرآن أنه ليس للانسـان الا ما سعى ، وأنه ليس ضحية لخطيئة موروثة أو جريرة جناها ابوه او جده .

« لا تزر وازرة وزر اخرى » سـورة فاطر آية ١٧ .

وذلك هو الانسـان فى الاسـلام ، ولم يتركه الاسلام وشـأنه ، بل اعده اعدادا كاملا لتحمل المسئولية ، وتادية الرسـالة ، وحمل الأمانة فقد كفل الله له من العلم وتهيئة اسباب الحياة ، وتنظيم حيـاته فردا وجماعة ، وحيدا وفى اسرة ، وفى عشـيرته او دولته ، فى وطنه أو مع أوطان اخرى ، ميسرا لما خلق له ، وذلك ما سنفصله فيما يلى من هذا الكتاب .

الفصل الثالث

الانسان فى مدرسة الاسلام

كما يدخل الطفل المدرسة ليتخرج رجل المستقبل ، كذلك جعل الاسلام للانسان مدرسة يخرج منها انسانا صالحا قادرا على تحمل ما كلف به من أمانة ناءت بحملها السموات والأرض والجبال ، ومنهاج هذه المدرسة كتاب انزله الله تبيانا لكل شيء وهدي ورحمة وبشرى للمسلمين ، وسنة عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم الذى قيل من لدن الرحمن فى حقه قوله : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى » سورة النجم الآيات ٣ ، ٥ .

لقد اهتمت هذه المدرسة بالانسان اهتماما بالغا أدى بالمسلم أن يكون بالنسبة لغيره من بنى الانسان عضوا عاملا منتجا ، عليه من الواجبات مثل ما له من الحقوق ، ما لم يشرف به غيره من اتباع الديانات الأخرى .

بذلك كان المسلم فى عمله هادفا وفى رسالته مصيبا لمرمى ، مما نتج عنه سيادته للعالم ، فقد اتى حين من الدهر ساد فيه العلم العالم وارتفعت راية الاسلام خفاقة على ربوع الأرض ، وذلك يوم أن تمسك السلف الصالح من المسلمين بمنهاج المدرسة الاسلامية وطبقوه عملا عن علم واخلاص ، عن عقيدة وتضحية وليدة الحب الالهى الذى يدفع الانسان بقوة لا تعد لها قوة فتتفتح له الآفاق وتتحطم امامه الحواجز ، ذلك كله يوم أن كان المسلمون صفا واحدا يوم ان كان « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » سورة الفتح آية ٢٩ .

واذا كان المسلمون فى وقتنا الحاضر قد نزلوا عن مراتبهم ورجعوا القهقرى فذلك راجع لاهمالهم منهاجهم ، ولعدم تمسكهم بما أوجبه عليهم ربهم ونبيهم .

واذا كان بعضهم ينسب العيب للاسلام ، فهذا محض افتراء ، فليس للاسلام من ذنب ، فالعيب عيب المسلمين الذين تركوا جوهرهم وتمسكوا

بعرض غيرهم فكان وبالا عليهم ، واصبحوا مسـودين بعد أن كانوا سـادة ، وهذا مآل من يجرى وراء العرض الزائل ويتخذ من أعداء الله بطانة له ، فلا يألونه الا خبالا .

وهدف المدرسة الاسلامية ان تخرج الانسان الذى يسود نفسه ويكسر مؤمنا بالغيب ، مؤمنا بما انزل على محمـد صلى الله عليه وسلم وما انزل الله له فى قوله عز وجل « ولله العزة ولرسـوله وللآؤمنين » سورة المنافقون آية ٨ ــ « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شـهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » آية ١٤٣ وبذلك يستطيع فى ظل تلك التربية الداعية الى قوة الارادة التغلب على أعدائه وبذلك تعود راية الاسلام للارتفاع فوق كل البقاع بفضـل التربية الربانية والمنهاج الالهى

فأول الدروس التى يتلقاها المؤمن بالمدرسـة الاسـلامية أن يكون مؤمنا بالغيب ، مؤمنا بما انزل عاى محمد صلى الله عليه وسلم وما انزل على الرسـل من قبله ، مبرهنا على ايمانه بأعمال يؤديها فيها الخير كله لنفسـه ولغيره ، فاذا ما اداها كان من المتقين وكان على هدى من ربه ، وبذلك يدخل فى عداد المفلحين ، وذلك ما ورد فى سـورة البقرة آية ١ ــ ٥ « ذلك الكتاب لا ريب فيـه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، اولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ثم تتوالى الدروس كلها تقويم للانسـان الذى يتعلم منها المجاهرة بالحق وابداء الرأى فى شجاعة أدبية لا يخاف لومة لائم ، ولو كان ذلك الحق فيه هزيمة لنفسـه ونصرة لعدوْ متتبعا الأمر الصـادر فى سورة البقرة آية ٤٢ « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون » وكذلك يتلو ما ورد فى سـورة النساء آية ١٣٥ من أمر لله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ثم يأتمر فى سورة المائدة آية ٨ « يا أيها الذين آمنـوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شـنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعلمون » .

والانسان الذى أخرجته معصيته من الجنة لعدم وفائه بما التزم به وهو عدم اكله من الشـجرة المحرمة عليه ، لا يصح ان يترك فى اغلال

الخطيئة . بل يجب أن يخرج منها بالتوبة والوفاء للعهـد ، وذلك بدروس يتلقاها فى مدرسة القرآن حتى لا يتعرض للتجربة مرة اخرى ، وبذلك يطلق على المتحررين من ربقة الحنث بالوعود والعهود لقب الموفين بعهدهم اذا عاهدوا ، وذلك بفضل ما تلقوه من أمر (وأوفو بالعهد ان العهـد كان مسئولا) سورة الاسراء آية ٣٤ .

ومهما كلف الانسان الوفاء بالعهد فانه يلتزم به ، لانه يؤمن أن نتيجة ذلك هو الفوز العظيم ؛ كما قرأ فى منهاج ربه (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) سورة التوبة آية ١١١ والوفاء بالعهد صفة ملازمة لصفة الصبر وذلك لما ورد فى قول الله تعالى (والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) سورة البقرة آية ١٧٧ .

ولما كانت العقود عهودا ، والتعاقد بين الناس عهـدا ، ولما كان الايمان بالله ميثاقا بين العبد وربه يفرض على العبد تأدية العبادات والعمل بالاوامر والابتعاد عن النواهى ، فقد أرادت عناية الله الا تهمل العقود أو المواثيق ، سواء كانت بين العبد وغيره من بنى الانسان ، أو كانت بينه وبين الرحمن ، فقد أشار اليها عز وجل فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) — (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرعون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار) سورة الرعد من ٢٠ — ٢٢ .

ولا يستطيع الانسان الوفاء بالعهـد ولا يمكن أن يطلق عليه لقب المؤمن الا بالامتحان والتجربة والابتلاء وجواز النجاح فى الامتحان هو الصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء ، ولذا قال تبارك وتعالى فى اول سورة العنكبوت : (احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ، وفى سورة البقرة ضرب الله على الوتر الحساس من الانسان وجعل الامتحان فيما يحافظ عليه المرء ويتكالب فى جمعه والمحافظة عليه بكل ما اوتى من قوة وجهد ، فقد قال الله تبارك وتعالى (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين) البقرة آية ١٥٥ .

كما يدرس الانسان فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وفى الكتاب الذى انزله الله على ذلك النبى الوسائل التى تساعده على الصمود أمام تلك التجارب والنجاة من الفتنة فيقرأ فى الدستور الجامع منهاج رب العالمين القرآن الكريم (استعينوا بالصبر والصلاة) ثم يريد الله بهذا الانسان خيرا فيقص قصص من مسهم بالبأساء والضراء من قبل فصبروا وصابروا وبذلك نصرهم الله (مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وحين البأس وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ الا ان نصر الله قريب) البقرة ٢١٤ .

وأن وصف الله سبحانه لهؤلاء الذين ذكرتهم الآية السابقة لخير وصف لقوم ورد عنهم فى قوله تبارك وتعالى (الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) ذلك الوصف الذى وصف الله به أولئك الذين رضى الله عنهم فذكر لهم الصفات الآتية فى قوله تبارك وتعالى (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) سورة آل عمران آية ١٧ ، الذين جمعوا بين أيديهم نعيم الدنيا وعز الآخرة حتى وصفهم الله وخبر عنهم فى كتابه الكريم (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) .

والعلم الذى يتلقاه الانسان فى مدرسة الاسلام الكبرى ليس مجرد علم يتعلمه ليحفظه فى صدره ، كما ان الاوامر والنواهى ليست مجرد قوانين تسن ولا يسأل عنها الانسان ، بل امر الانسان ان يطبق علمه فى حياته العملية ، وذلك بأمر من الله الذى جعل الرقابة من جانبه سبحانه والرقابة من جانب الرسول والمؤمنين ، فقد أمر عز وجل : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فان عمل بما علم واطاع الله ورسوله ، دخل فى مصاف الذين أنزل الله فى حقهم الآيات (ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

وكل انسان لا يجهل مقر هؤلاء الذين ذكرتهم الآية الكريمة ، فقد قرأ كل مسلم (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون) سورة البقرة آية ٢٥ — (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا) — (جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير

وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور ، الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) سورة فاطر آية ٣٣ — ٣٥ — (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) — (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) سورة آل عمران آية ١٥ .

واذا اصاب الانسان فتور أو توانى عن العمل ، فأمامه النداء من الله عز وجل الذى يفتح يده بالليل ليقبل مسىء النهار ويفتح يده فى النهار ليقبل مسىء الليل ، والنداء يقول : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين) وهؤلاء المتقون عرفهم ربهم بقوله : (الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

وقد اعقب النداء سبحانه وتعالى للذين فعلوا الفواحش يطمئنهم (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) سورة آل عمران الآية ١٣٦ .

واذا كانت الآيات السابقة طلبت من الانسان ان يسارع الى المغفرة ، فقطار المغفرة هو الاستغفار ، وأن رحمة الله بعباده جعلت من الاستغفار متاعا فى الدنيا والآخرة ، ودليلنا على ذلك ما ورد فى قول الله عز وجل على لسان نوح عليه السلام لقومه : (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) سورة نوح الآيات ١٠ — ١٢ .

وفى العمل للخير قد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم الانسان بأحاديثه ، فقد روى عن أبى امامة رضى الله عنه **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وان تمسكه شر لك »** رواه مسلم والترمذى ، وعن بلال رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ما رزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع ، فقلت يا رسول الله وكيف لى بذلك ؟ قال : هو ذاك او النار »** . وخلاصة تعاليم الاسلام أدب وأخلاق وتعاون وتعارف ، لا فرق بين ذكر وأنثى ، ففى الناحية الدينية والروحية يتساويان (ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) سورة النساء آية ١٢٤ .

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) سورة النحل آية ٩٧ .
(فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) سورة آل عمران آية ١٩٥ :

ومن الادب القرآنى ينهل الانسان نهلا عذبا يحدد له احترام الحرمات وأدب العلاقة بينه وبين غيره من البشر حتى يكون انسانا كاملا يستحق ما توج به من لطيفة ربانية ، وأن التعاليم والاوامر التى وردت فى سورة النور لكفيلة بأن تخلق فردا صالحا يكون نواة صالحة لاسرة صالحة تكون أساسا لمجتمع صالح فقد ورد فى قول الله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون . قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمورهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن أو آباء بعولتهن أو ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن او بنى اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين من غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنين لعلكم تفلحون) . سورة النور الآيات ٢٧ — ٣١ .

اذن ما سردنا من أمثلة على سبيل المثال فى التهذيب الروحى للانسان يثبت بلا مجال للشك ان الانسان خلق لرسالة وحمل أمانة ، وعليه ان يجاهد حتى يطبق علمه فى حيـــاته ، ويترجم علمه عملا ، وقد أحاط الله الانسان علما بأنه ان لم يطبق ما تعلمه فى حياته ولم يعمل بما أمر ، فقد أنزل له مع الترغيب وعيدا ، ومع البشرى نذيرا ، ومع الوعد تهديدا جزاء ما فرط ولم ينتفع بما تعـــلم فدخل فى زمرة الذين يقولون ما لا يفعلون ، وقيل له من لدن العزيز الحكيم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون) ثم يسمع خطاب الله له (فاتقوا ثم كلى من الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف
(اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) البقرة آية ٤٨ .

(يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم) .

كل هذا ذكر من الله عز وجل ضمنه كتابا لا ريب فيه هدى للمتقين والانسان حر فيما يختاره لنفسه فهو يسمع قول الله عز وجل : (من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا ، خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا . يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ، يتخافتون بينهم أن لبثتم الا عشرا ، نحن أعلم بما يقولون اذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما) . سورة طه الآيات ٩٩ — ١٠٤ .

إذن فالانسان رهين بما كسبت يداه سيحاسب فى يوم يؤمن أنه لابد آت (يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا . يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما . وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما . ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) . سورة طه الآيات ١٠٨ — ١١٢ .

ولقد كان الانذار من الله عز وجل لآدم عندما أخرجه من الجنة تحصينا وتعليما ، كما ان فيه البلاغ المبين .

(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وابقى) . سورة طه الآيات من ١٢٣ — ١٢٨ .

والاسلام بمدرسته هذه اشترط فى المسلم شروطا صادقة وايمانا يترجمه العمل ، ومرآة ايمان المرء عدة صفات تظهر المؤمن على حقيقته ، فالتواضع مع العزة والكرم مع الاقساط والعدل ، والطهر مع العفة ونقاء الطوية مع الفطنة ، والتوبة الصادقة مع الحرص من الزلل ، والخوف من الله مع عدم التهاون فى الاخذ من حدود الله مأخذ الهزو ، والعفو عن الاساءة الشخصية مع العمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » كل هذه صفات تظهر المؤمن بمظهره الذى يجب أن يكون عليه ، وبذلك يكون المؤمن قد انطبق عليه قول الله تبارك وتعالى فى سورة الفرقان :

وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا

اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقرا ومقاما ، والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حـــرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيـــامة ويخلد فيها مهانا ، الا من تاب وآمن وعمل صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل عملا صالحا فانه يتوب الى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا مما عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما ، اولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » . سورة الفرقان الآيات ٦٣ — ٦٧ .

وبهذه الامثلة وبتلك التعاليم التى عنى الاسلام أن يلقنها للفرد يخرج المسلم وقد حمل معه شهادة من الله ورســـوله تشهد انه فرد صالح ، والفرد نواة المجتمع الاولى ، حيث أن من الفرد تتكون الاسرة ، والاسرة هى اللبنة الاولى فى المجتمع .

وان تهيئة الفرد لهى تهيئة للمجتمع كله ، ولذلك عرضنا فى بحثنـــا هذه العجالة التى عنوناها بمدرسة الاسلام ، لنبين عناية الاسلام بتهذيب الفرد ، وسنتبع هذا البحث بفصول نبحث مدى تهيئة الاسلام لاســـباب الحياة للانسان ، ثم ندخل فى موقف الانسان من المجتمع وموقف المجتمع من الانسان ، اى نوضح موقف الاسلام من الانسان والانسانية .

الفصــــل الرابع

تهيئة اســباب الحيــاة للانسان

الباحث فى الدين الاسلامى والمتعمق فيه ، بعد أن يعرف سبب خلق الانسان ، وطبيعة خلقه التى كانت مزاجا من توامين ، الاول اللطيفة الالهية الروحية ، وهذه وظيفتها النزوع الى الله عز وجل والعبادة له والثانى طبيعة ارضية عملها جذب الانسان الى الارض وحب الخلود فيها ، وقد بينـــا فى الفصول السابقة أن الانسان خلق لعمارة الارض .

يجد الاسلام قد خرج بالانسان من القيود والاغلال التى طوقت جيده زمنا طويلا ، آخره عهد الكنيسة التى ابقت السلطة فى يدها ، ولقد كانت سلطتها مقدسة تملك رقاب الناس فى الدنيا وفى الآخرة ، حيث ظلت تبيع صكوك الغفران وتصدر قرارات الحرمان ، حتى جرها ذلك الى مقاومة ومناهضة الافكار الحرة ، التى تتعارض مع نظـــريات الرق والاستعباد الدينى ، مما نتج عنه وجود طوائف من العلماء والمفكرين تحتقر الكنيسة ولا تعترف برجال الدين ، وكان عمل هـــذه الطوائف مناهضة الكنيسة ورجالها مما جعلهم فى مهب الريح كريشة لا تملك لنفسها أمرا ولا تستطيع أن يكون لها مستقر .

ولما جاء الاسلام بقواعده الثابتة ، اظهر وظيفة الانسان وجعلهـــا واضحة المعالم فى شعائره ونظمه ، التى وفقت بين الروح والمادة والعبادة والعمل ، فلا عزلة للجانب التعبدى عن الجانب الدنيوى لذلك الانسان بل وضعت للعبادة والعمل فى كفة واحدة من الميزان ، حيث جعل الاسلام العبادة عملا والعمل عبادة ، وخـــير دليل على ذلك امر الله فى القرآن الكريم فى سورة الجمعة (ياايها الذين آمنوا اذا نودى للصــــلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله) ســـورة الجمعة الآيتان ٩ ، ١٠ .

اذا لم يخلق الانسان عبثا ، ولم يخلق الله ليكون من الســـاجدين المسبحين فقط أو يكون من العاكفين فى ركن من اركان المسجد ، او مترهبا فى ديره ، او سجينا فى صـــومعة ، فقد كان الله فى غنى من عبادة ذلك الانسان لان الملائكة وكل شىء خلقه الله يسبحه ويذكره ، فكانت للملائكة وظيفة واحدة وهى العبادة فقط ، ولكن الانسان كانت له وظيفة اخرى

بجانب وظيفة العبادة وهى العمل على عمارة الارض ، لكى تظهر نعمة الله ظاهرة وباطنة ، وقد جاء فى سورة الكهف فى آية ٨٤ قول الله تبارك وتعالى : (انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شىء سببا ، فأتبع سببا) .

بل خلق الانسان ليسبح ويعمر ، ويسجد ويشيد ، ويركع ويزرع ، ويصوم ويروى ، ويحج ويتاجر ، يستمتع بحياته الدنيا استرواحا منه واستمتاعا بنسمات الآخرة .

ولم يهبط الانسان من الجنة الى الارض ليكون كلا عليها يعيش كالسائمة دون أن يفلح تلك الارض فيخرج من بطونها آلاء الله ونعمه ، ولو تتبعنا ما جاء فى سورة الحج لعرفنا لم خلق الله الانسان (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) سورة الحج آية ٥ .

اذن هبوط الانسان الى الارض بعد غفران الله له كان بعد غواية الشيطان وبذلك عرف الانسان أنه عدو لدود لابد أن يصارعه حتى يصرعه ، فنشأت عنده شهوة الصراع ، والصراع يحتاج الى القوة ، والعمل من أسباب القوة ، وقد ايد ذلك قول الله عز شأنه فى سورة الحج آية ٤٠ : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) .

والاسلام بعد كل عمل يعد ذلك العمل سواء كان لصالح الفرد او الجماعة من شعائر الدين ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا رواه الشيخان والترمذى والنسائى : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، او القائم الليل الصائم النهار » .

ولو تتبعت حياة النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، ودرست سنته التى خلفها من بعده ، لرايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع العلم العمل ، او يجعل من العمل علما . فقد اخرج الستة الرواة للحديث عن أنس رضى الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفره ، فمنا الصائم ومنا المفطر . قال : فنزلنا فى يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، فمنا من يتقى الشمس بيده ، قال : فسقط الصوام ،

وقام المفطرون فضربوا الابنية وسقطوا الركاب فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذهب المفطرون اليـوم بالأجر كله » .

وانى دائما لأتخذ من حادثة لثلاثة جاءوا رســول الله صلى الله عليه وسلم ، نبراسا فى حياتى وقانونا من القوانين التى عجز المقننون على اختلاف نزعاتهم وفى مختلف العصور والازمان من إن يبلغوا ما بلغته كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكمة وبلاغة واصابة مرمى .

فقد روى الشيخان والنسائى عن انس رضى الله عنــه إنه قال : جاء ثلاث رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، (قالوا : اين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال احدهم : أما أنا فاصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وانا اصوم الدهر ولا افطر . وقال آخـر : وانا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا . فجاء رســول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا . واما والله انى لأخشــاكم واتقاكم له ، ولكنى اصـوم وافطر ، واصلى وارقد ، وأتزوج النساء ، من رغب عن سنتى فليس منى » .

ومن هذه التعاليم وبهذه الروح كان الانسان فى الاسلام مطالبا بالعمل المبنى على التفكير والتـأمل ، فلم يعتمـد على خوارق الامور وبواطن الغيبيات ، فقد ورد فى القرآن الكريم ما ضرب الله من أمثلة تدعو الانسان للتبحر والتعلم بانيا ذلك على التفكر والتأمل قال الله تعالى :

(ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ؛ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) سورة آل عمران آية ٩٠ ، ٩١ .

(ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم ، الا من استرق السمع فأتبعــه شهاب مبين ، والارض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ؛ وان من شىء الا عندنا خزائنــه

وما ننزله الا بقدر معلوم ، وارسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين) سورة الحجر الآيات ١٧ — ٢٣ .

(الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) سورة الرعد الآيتان ٣ ، ٤ .

(الم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) سورة النحل آية ٧٩ .

(الم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار) سورة النور آية ٤٣ .

وبعد دور التفكير والتامل يخرج الانسان من دائرة التهيئة والتصميم والرسم الى دور التنفيذ ، وذلك ناشىء عن قول الله عز وجل فى سورة الاعراف آية ١٠ .

(ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) ، ثم يستمر الانسان فى عمله لا يتخلى عنه ايمانه ينفذ مشيئة الله فى البحث عن قوته الذى ضمنه الله له فى قوله تبارك وتعالى : (وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وضمان آخر : (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) ، مع شرط العمل والبحث ايمانا من الانسان ان الله مربى غذاء ، فهو يفلح الارض والله (هو الذى جعل لكم الارض ذلولا) .

ثم يبدأ الانسان فى تقليب أرضه وحرثها وبذر البذور فيها ، ثم يأتى دور الرى والانبات فى سورة البقرة آية ٢٢ (الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) وقدرة الله تبارك وتعالى تتجلى فيما أورده فى كتابه الكريم الذى لم يفرط فيه من شىء ، ولنضرب أمثلة من قول الرحمن :

(أن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت

من الحى ذلكم الله فأنا تؤفكون ... وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) سورة الانعام الآيات من ٩٤ — ٩٩.

(وهو الذى انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه وحصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) سورة الانعام آية ١٤١ .

) وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ، والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) سورة الاعراف الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

(انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) سورة الرعد آية ١٧ .

(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منها شراب ومنها شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم فيه الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) سورة النحل آية ١٣ .

(وانزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون ، فانشأنا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون ، وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) سورة المؤمنون آية ٢٠ .

(امن خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) سورة النمل آية ٦٠ .

(الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) سورة يس آية ٨٠ .

وعمل الانسان بالزراعة يحتم عليه ان يعمل على ايجاد مسكن له يقيه الحر والبرد ويتخذه مخزنا ، لحصاده فألهمه الله من البناء والعمارة .

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا . . . وجعل لكم من الجبال اكنانا) سورة النحل آية ٨٠ .

(واذكروا اذ جعلكم خلفاء . . . وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين) سورة الاعراف آية ٧٤ .

(. . . لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم ابوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) سورة الزخرف آية ٣٥ .

ثم احتاج الانسان عند اكتشافه الزراعة الى تنظيمها وترتيب مواسم الزراعة والحصاد فعلمه الله عدد السنين والحساب لكى يتمكن من ضبط اوقاته سواء فى العمل او العبادة .

(يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ، ان فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله السموات والارض لآيات لقوم يتقون) سورة يونس الآيتان ٥ ، ٦ .

(ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض) سورة التوبة آية ٣٦ .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا) سورة الاسراء آية ١٢ .

ومن رحمة الله على عباده ولطفه بهم نظم لهم العمل والراحة ، فقال : (فالق الاصباح وجعل الليل سكنا) سورة الانعام آية ٩٦ .

(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون) سورة يونس آية ٦٧ .

(وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) سورة الفرقان آية ٤٧ .

(وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا) سورة النبا الآيات ٩ — ١١ .

والزراعة والحصاد يحتاجان الى الآلات الزراعية ، مما أوجب على الانسان أمام الحاح الحاجة الى التفنن والاختراع وصنع آلاته ، كالفأس والمحراث وغيرها ، ثم تطورت صناعاته ، فكان فى احتياج الى ما يجر المحراث وينقل محاصيله ، فاستأنس بعض الحيوانات التى سخرها الله لخدمته .

وهنا يتجلى تكريم الخالق للمخلوق واضحا فى آياته وآلائه سبحانه وتعالى الذى فصل كل شىء فأحسن تفصيله ، حيث جعل فى الأنعام منافع كثيرة وفوائد جمة للانسان ، وذلك ظاهر فى أصدق القول قول الله عز وجل الذى أبان لنا قدرة الله التى أخرجت لنا لبنا سائغا من بين فرث ودم وشهدا فيه شفاء للناس من بطن حشرة صغيرة ، وجعل لنا مما أفاء علينا من الفواكه سكرا ورزقا حسنا واليك بيان العزيز الحكيم ...

(والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) سورة النحل الآيات ٥ — ٨ .

(وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) سورة النحل الآيات ٦٦ — ٦٩ .

ثم قامت الصناعات التى تناسب تطورات الزمن واحتياجات الانسان ،

فاتجه الانسان الى الصناعات الجلدية والصناعات الناشئة على عظام الأنعام ، كما قامت صناعات الغزل والنسيج والملابس والخيام على مخلفات تلك الأنعام .

(وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين .. وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) سورة النحل الآيتان ٨٠ ، ٨١ .

ولم تكن الصناعات التى قامت على الزراعة ومخلفات الحيوان تتفق وتطور المدنية الانسانية ، فاكتشف الانسان الحديد فى باطن الارض كما اكتشف غيره من المعادن ، ومن هنا تعلم الصناعات المعدنية وأدخلها فى حياته ، ثم تطورت الصناعات المعدنية فتحسنت فكانت أداة الانسان فى سلمه وحربه .

(فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا) سورة الكهف ٩٥ — ٩٦ .

(ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير . ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) سورة سبأ آية ١٠ — ١٢ .

وبالاستمرار فى الآية السابقة نجد فضل الله على الانسان حيث علمه مما يشاء ما لم يكن يعلم .

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) سورة سبأ آية ١٣ .

وعلى الصناعات الحديدية وبواسطة ما اكتشفه الانسان من معادن أخرى ووجود البترول فى باطن الارض اخترع الانسان السيارات والدبابات والمصفحات والاسلحة وذلك ظاهر فى قول الله عز وجل .

(والعاديات ضبحا فالموريا قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فاثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا) سورة العاديات من ١ — ٥ .

ثم وجه الله الانسان الى تسخير البحار والانهار وجعل له فيها منافع زينة ومتاعا ، يرتوى من عذب النهر ويستخرج من البحر يتخذها زينة ومتاعا ، يرتوى من عذب النهر ويستخرج من البحر الملح ، ويسخر صفحة كل منهما لفلكه وسفنه التى تحمل تجارته وتكون وسائل النقل والتنقل والسفر ، مما ساعد على تقدم الانسان على مر الزمن ، وأن البواخر التى تمخر عباب البحار والانهار والتىقربت البعيد من البلدان ووصلت القارات ببعضها والاقطار لخير دليل على فضل الله على عباده ، وانا لنسوق الآيات على سبيل المثال اعترافا بفضل الله عز وجل :

(وارسلنا السماء مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم) سورة الانعام آية ٦ .

(وهو الذى سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) سورة النحل آية ١٤ .

(وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) سورة الفرقان آية ٥٣ .

(امن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا االه مع الله بل اكثرهم لا يعلمون) سورة النمل آية ٦١ .

(وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تاكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) سورة فاطر آية ١٢ .

(الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه يأمرون ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) سورة الجاثية آية ١٢ .

(والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا) سورة الذاريات الآيات من ١ — ٤ .

(احل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) سورة المائدة آية ٩٦ .

والارض وما حوت من جبال وجنات معروشات ومعادن فى بطنها ، والبحار بما فيها من لآلىء وثمين الاحجار وما عليها من مواخر وبواخر وفلك تجرى بأمر الله ، والانهار وما تحوى من ماء عذب فرات ولحما طريا وما يجرى على صفحاتها من ذوات الشراع والانعام والدواب ، كل ذلك اصبح ضئيلا امام مطامع الانسان واحتياجاته ومدنيته ، فاتجه الى السماء يكشف مكوناتها ويكتشف اسرارها ويستطلع اخبارها ، فسخرها لمطالبه ، ولم يكن ذلك الا بوحى من الله العلى الكبير .

وباكتشاف الانسان أسرار السماء ، واطلاعه على ما لم يعلم من قبل صنع الطائرة والمنطاد التى اكتشفت بقاعا فى الارض لم يكن قد وصل اليها من قبل ووفرت الزمن فقربت البعيد ووصلت بين الامم ، ثم اكتشفت القوة الطاردة والقوة الجاذبة فأدخلها فى علومه ، ومنها عرف السالب والموجب ، ثم توصل الى الذرة ودرس الهواء والاجواء ، وجاب الفضاء . ومازال ولا يزال يكتشف ويخترع ويجدد ، وفى كل يوم تظهر له آفاق جديدة من العلوم والمعارف ، حتى سخر موجات الاثير فاخترع الاتصال السلكى واللاسلكى .

ولو تحققنا ودققنا ومحصنا النظر وسرحنا بالفكر لوجدنا أن ذلك كله بفضل ما أوحى الله لانبيائه وما صنع الله من معجزات على ايدى هؤلاء الانبياء ، وكل ذلك كان تعليما للانسان وتوجيها .

فلو نظرنا مثلا الى سورة الجن لوجدنا من آيات الله عجبا ، فقد أوحت تلك الآيات المبينات الى الانسان بصورة رائعة من الاتصال الهوائى (اللاسلكى) وقد ضرب الله مثلا فكان أصدق مثلا ، فقد جاء على لسان الجن عندما اوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حراسا وشهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) وفى سورة الحجر جاء قوله تعالى : (الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) .

وما وحى السماء الى الارض الا قدرة للرحمن عز وجل جعلها لعباده مليئة بالدروس التى توجههم الى التفكير والتطلع اللذين تعقبهما النتيجة ، وما النتيجة الا عمل ، وما نزول جبريل الى الارض بالوحى على النبى الا درس السماء الى الارض (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) سورة النمل آية ٦ .

واسراء النبى محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى آية من الله توجه الانسان الى ان يبحث عن السرعة ، ولعل الدرس الوحيد فى حادثة الاسراء هو الدليل على ان هناك فى علم الله سرعة تفوق النفاثة ، بل سرعة الصوت والضوء .

(سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى) سورة الاسراء آية ١ .

وعروج النبى صلى الله عليه وسلم الى السماء وكونه قاب قوسين أو ادنى ودنوه وتدليله ليعجز المخترعين عن الوصول الى المكان الذى وصل صلوات الله عليه اليه .

(... ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو ادنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما راى ، افتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى لقد راى من آيات ربه الكبرى) سورة النجم الآيات من ١ — ١٨ .

وقصة الاسراء والمعراج تتضمن حسبما روت زوجة النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يبيت عندها ليلتئذ انه اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وعرج به الى السماء ونزل وصلى بالانبياء ورجع الى مكانه ، ولا يزال مكانه دافئا .

ولن ينحنى مخترعو سفن الفضاء أمام البراق والمعراج فحسب ، بل يجب عليهم أن يحنوا الرؤوس أمام قصة سليمان عليه السلام والهدهد وعفريت الجن وملكة سبأ ، لاننا راينا أن تلك المخترعات عجزت أن تصل بسرعة طيرانها الى السرعة التى أحضرت بها ملكة سبأ بين يدى سليمان عليه السلام ، ونترك القرآن الكريم يقص علينا القصص فى قول الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(... وتفقد الطير فقال : مالى لا ارى الهدهد أن كان من الغائبين ؟ لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . انى وجدت امراة تملكهم واوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ، قال سننظر اصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : ياأيها الملأ انى القى الى كتاب كريم . انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلو على واتونى مسلمين . قالت : ياأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا : نحن أولوا قوة واولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون . وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال ياأيها الملا ايكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده ، قال هذا فضل ربى ليبلونى أأشكر ام اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم) . سورة النمل الآيات من ١ — ٤٠ .

ان القصص القرآنى قد صور فى بلاغة ما كان بين سليمان والهدهد ، وسرعة وصول الخطاب وسرعة الرجوع بالهدية ، وأعجز ما قص علينا القرآن المنافسة بين السرعة التى حددها عفريت الجن الذى اخذ على نفسه احضار عرش بلقيس قبل ان يقوم سليمان من مقامه ، والسرعة التى حددها الذى عنده علم الكتاب الذى جاء بالعرش بين يدى سليمان قبل ان يرتد طرفه ، وان ذلك ليلجم الذين قالوا انا ردنا الفضاء فكنا اسرع ، وجبنا السماء فكنا ارفع ، وان اعجاز تلك القصة لهم لأوقع ، فمن ينكر قدرة الله فليعلم انه عنده من الجن والانس ما هو قائم بامره ولأمره والله غنى عن العالمين .

ولم يكن اتجاه الانسان الى السماء عفوا او بطريق الصدفة ، انما كان ذلك توجيها من الله الذى سخر السموات والارض للانسان ، والذى عرفه ذلك الانسان بالسماء فى محكم آياته وهو العليم الحكيم

الذى امر عباده بالتفكر والتدبر فى السموات والارض ، ذلك انه ذكر السموات قبل الارض فى اكثر الايات ، وذلك لقوله :

(ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) سورة آل عمران .

(الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور) سورة الانعام آية ١ .

(فلن استطعت ان تبتغى نفقــا فى الارض او سلما فى السماء) سورة الانعام آية ٣٥ .

(خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) . سورة الزمر آية ٥ .

(والسماء رفعها ووضع الميزان) سورة الرحمن آية ٧ .

(ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم) . سورة الحجر الآيتان ١٦ و ١٧ .

(اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما) سورة الانبياء آية ٣٠ .

واتجاه الانسان الى السماء جره الى دراسة بروجها وما زينها به الله من شمس وقمر ، فربط حيــاته بالأفلاك والكواكب والنجوم والشمس والقمر ، وهن اللائى جعلهن الله للانسان مسخرات ، فقد عرف أن الشمس التى تمده بالنور نهارا والدفء والحرارة ، كما تمده بالفيتامينات والاشعة اللازمة لحياته ، كذلك تمد زرعه بالفيتامينات والكلوروفيل الذى يعد عاملا من عوامل انماء زرعه ، حيث يكون هناك التمثيل الضوئى (الكلوروفيلى) وكذلك عرف الانسان النجوم التى اهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، ومنها تعــلم اختراع البوصلة البرية والبحرية ومن اختراع البوصــلة والنجــوم درس التقلبات الجوية فتعــلم فن الارصاد ، ثم حاول وفكر فى الصعود الى القمر وتســخيره لأمره ، كما سخر الارض ؛ وان صناعة الاقمار الصناعية واختراع الصواريخ لكفيل أن يرينا كيف يفكر الانسان فى اختراق السماء والخــوض فى غمارها وامله فى الوصول الى المريخ لكى يكتشف ويستطلع ما خفى عليه ، والله الذى وهب الانسان العقــل المفكر واللطيفة المدبرة بفضل نعمه .

(والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) سورة الانعام آية ٩٧ .

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) سورة يونس آية ٥ .

(وعلامات وبالنجم يهتدون) سورة النحل آية ١٦ .

وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) سورة الانبياء الآيات ٣٢ ، ٣٣ .

(وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا) سورة النبأ الآيات ١٢ ، ١٣ .

وان كنا قد تحدثنا عن السموات والارض فلا يفوتنا التحدث عما بينهما ، ولنأخذ الهواء مثلا ، فان الهواء الجوى بما يحوى من اكسوجين وهو ضرورة لازمة لحياة الانسان والحيوان والنبات ، وبما يضم من ثانى اكسيد الكربون الذى يعد ركنا اساسيا فى تكوين المواد النشوية وعاملا هاما فى الحد من حرارة الجو ، كل ذلك وما حوى الهواء من غازات أخرى كالنيتروجين والازوت وغيرها تهيئة لاسباب حياة الانسان فى الارض..

وأن استخلاص الاوكسيجين وثانى أوكسيد الكربون وغيرهما من الغازات كان عاملا من عوامل فتح الميادين الصناعية فأقيمت المصانع وانشئت المؤسسات واشتغلت الايدى العاملة ، مما اوصل الانسان الى مراتب التقدم والحضارة .

ومن السموات والارض وما بينهما تعلم الانسان العلوم الكثيرة كعلم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا ، ومن عدد السنين والحساب ارخ وسجل ، ومن بحر النعم الالهية تفنن واخترع واقام وصنع ، فسبحان الرحمن الذى علم القرآن ، خلق الانسان علمه البيان .

لمحة لا بد منها احقاقا للحق ، ان ذلك الانسان فى كثير من الاحيان لم يتخذ هذه النعم اداة لخير الانسانية ، بل اتخذها اداة للشر والحروب والدمار ، فهذه القنبلة الذرية والاسلحة النووية كان يمكن توجيه طاقتها للسلام ومنفعة الانسانية ، ولكن الانسان اتخذ مما علمه الله طريقا لايذاء بنى جلدته ، وفناء لاصله ، وتخريبا لما شيدت يداه ، فكان كالجمل ذى الخف الذى اذا جر المحراث لحرث الارض يبطط ما حرثه .

لم يكتف الانسان بمحاربة بنى جلدته فحسب ، بل حارب ربه واتخذ من آلاء الله سلاحا لحربه فلم يخش الله وران على قلبه فكفر والحد وانكر وجود الله ونسى قدرة الله ونسبها الى الطبيعة ونسى ان يسأل

نفسه : من خالق هذه الطبيعة ؟ فكان قلبه اغلظ من الحجارة ، وكانت الحجارة أعرف منه بربها .

(وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعلمون) سورة البقرة آية ٧٤ .

نسى الانسان عبادة ربه وعبد شهوته ، وركع لنزواته خلف عدوه الشيطان اللدود واستذل له حتى أذل عنقه فارتكب ما حرم عليه وترك ما احل له حتى أصبح لا هم له الا اشباع رغباته الجسدية وطبيعتـه الترابية ونسى ما زود به من لطيفة ربانية وطبيعـة روحانيـة فزين له سوء عمله .

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المســومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) سورة آل عمران آية ١٤ .

ولو علم الانسان ان الله سبحانه وتعالى أحل له الطيبات من الرزق ، ولم يحرم عليه الانتفاع بالنعم والتمتع بالآلاء ، بل سخر كل ذلك لامره تفضلا منه سبحانه وتعالى ، ولكن ذلك فى حـدود ما احل الله وما ينفع الانسان ما سار وراء شهواته وما عبد نزواته .

(يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ان الله لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنـوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيـامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) سورة الاعراف آية ٣٠ — ٣٢ .

وان الله يحب أن يرى نعمه على عبده ظاهرة وباطنة ، ودليلنـا على ذلك انه سـخر كل شىء لخدمة الانسان ولرفاهيته ، ولكن هـذا الانسان كفر بأنعم الله فكان لربه خصيما ، ونسى من خلقه وهيأ له أسباب الحياة خلقه لحكمة واكرمه ، حتى امر الملائكة ، ان تسجد له وكان بسببه ان طرد ابليس وذلك زيادة فى التكريم ولكن ... (انه كان ظلوما جهولا) .

وان ما اجملنا فى هذا الفصل ، قد عزمنا بمشيئة الله العودة اليـه تفصيلا فى كتاب جديد يحوى بحوثا مستفيضة فيما وصل اليه الانسـان من رقى وحضارة وتقدم ، واشارات القرآن الى هذا التقدم والرقى قبل ان يحـدثنا او يعرفهـا الانسان ، وادعـو الله التوفيق كما ادعـوه (رب زدنى علما) .

البـــاب الثـالث

المجتمــــع

الفصــــل الأول

الأسرة فى الأديان

الاسرة هى نواة المجتمع ، فاذا ما صلحت صلح المجتمع ، ولو فسدت لفسد المجتمع ، فاذا ترابطت الاسرة وساد افرادها الحب والاخاء كانت نواة لمجتمع صالح تسوده المحبة ويعمه السـلام ويعيش فى أمن ورخاء ، واذا تفككت كانت نواة لمجتمع مفكك تسوده البغضاء والشحناء ، وبذا يختل نظامه .

ولما كانت الاسرة تتكون من أفراد تبدا بالاب وهو الزوج والأم وهى الزوجة ، ينسلان أولادا ذكورا واناثا ، فقد آثرنا بعد بيان حالة الفـرد قائما بذاته أن نعرض حالته فى أسرته ، سواء كان زوجا أو زوجة او أولادا ذكورا كانوا أو اناثا ، **ولما كان الزوج والزوجة هما حجـــرى الاساس فى الاسرة ، وهما البذرة الاولى التى نبتت منها الشجرة التى تفرع منهـا المجتمع ، وذلك لقول الله عز وجل ...**

(والله جعل لكم من انفسكم أزواجا ، وجعـل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) سورة النحل آية ٧٢ .

(يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) سورة الحجرات آية ١٣ .

كان حقا علينا ان نتعرض لمركز كل من الزوجين فى كل دين سواء كان دينا وضعيا او سماويا ، فلو تتبعنـا ديانة البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين والديانات الاخرى لوجدناها انها قد اهتمت بالرجل فقط ولم تذكر المراة الا شذرا ، حيث لم يفرض عليها واجبات الا من قبل زوجهـا وكان تاسـيا فيما فرضـه من واجبات فى الوقت الذى لم يتعين لها حقوق ، ولو رجعنا الى الديانات الوثنية لوجدنا أن المرأة كانت متاعا يورث .

فقد كان فى الجاهلية قبل الاسلام الولد يرث أمه ، كما كان له أن ينكح زوجـة أبيـه ولم يكن للمراة فى ذلك العهـد ان سلمت من الوأد وهى طفلة الا سجن البيت والرق وهى زوجة .

واذا رجعنا الى الاديان الكتابية قبل الاسلام نجـد ان اليهودية كان تعدد الزواج فيها مباحا الى غير حـد محدود أو عدد معدود ، ودون قيد او شرط ، بل كان الرجل اذا ما طرأ على عاطفته تغير من ناحيـة المرأة يتركها الى غيرها دون تطليق او تسريح بعد ان يكون قد أنجب من الاولى ، وتتكرر هذه الزيجات ويتكرر انجاب البنين والبنات ، وتقوم الكراهية والأحقـاد ، وبذلك انقسمت الاسرة الواحدة الى اسـباط يعادى كل سبط اخاه ، مما نتج عنه أن تفرقت كل أسرة الى اسـباط وكل سبط الى جمـاعات وكل جمـاعة الى فرق واحزاب ، وكل حزب الى دويلات ، فكان مجتمعا مفككا أدى به التفكك اخيرا الى انقسـام اليهود الى دولتين احداهما سميت بدولة يهوذا والاخرى بدولة اسرائيل ، وما يهوذا الا من نسـل اسرائيل وبذلك يكون البيت قد انقسـم على نفسه فخرب .

واذا تتبعنا المسيحية الحالية بدينها الجديد وعقائدها الدخيـلة على الاصل الذى جاء به السيد المسيح ، نجد أن الكهنة قد استحدثوا من القوانين ما جعل الزواج سجنا أبديا يصدق فيه قول الفيلسوف المسيحى الانجليزى الذى نقد القواعد الكنسية (بنتـام) BINTHAM فى كتابه أصـول الشرائع الذى ترجمه الى العربية الاستاذ احمـد فتحى زغلول (ولكن ان اشترطت المرأة على الرجل الا تنفصل عنه حتى لو حلت فى قلوبهما الكراهية الشديدة مكان الحب لكان ذلك أمرا منكرا لا يسيغه أحـد من الناس . على ان هذا الشرط موجود بدون أن تطلبه المرأة . اذ القانون الكنسى يحكم به فيتدخل بين الزوجين حال الزواج قائلا لهما : انكمـا تدخلان سـجنا سيحكم غلق بابه ، ولن يسمح بخروج أحدكما منـه وان تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء) .

وقد اراد الكهنة من هذا القيد بين الزوجين والتصاقهما ببعضـهما حتى ولو بلغ بينهما التنافر حدا يستحيل معه التوفيق ان تصبح الحيـاة الزوجيـة شيئا غير مرغوب فيـه ، وبذلك يكون الزواج عند الشـاب المسيحى امرا لا يقبـل عليه الا مدفوعا تحت ظروف واذا اندفع اليـه تصبح الحياة الزوجية سجنا لا يطاق ويصبح افراد الاسرة جميعا مهددين من جراء ذلك باسوأ النتائج وشر الكوارث فى جميع مناحى حياتهم الادبية والخلقية ، وبذلك يخلو الجو لهؤلاء الكهنة اصحاب النزوات والشـهوات فيرتعون وتكثر العشيقات والخليلات والعشاق والاخلاء فتكثر الخطـايا فيروج سـوق الاعترافات والغفران التى تبـاع صكوكه على يد هؤلاء الكهنة .

فالمسيحية تعرف الزواج ولا تعرف التفرقة ، حتى ولو كانت التفرقة واجبة ومحتمة ، وهى ترجع الى ثلاث مذاهب : الكاثوليكى والارثونكسى والبروتستانتى ، فالمذهب الكاثوليكى يحرم الانفصال تحريما باتا ولا يبيح الطلاق مطلقـا ، وان اباح التفـرقة الجثمانية بين شخصى الزوجين ، مع اعتبار الزوجية قائمة ، ولا يحكم بهذه التفرقة الا فى حالة خيانة احد الزوجين للآخر ، وهنا يحـرم على الزوجين ان يتزوجا او ان يطلقـا ، ويعتبر ذلك تصريحا غير مباشر بارتكاب الفحشاء ما ظهر منها وما بطن ، اعتمادا على ما جاء انجيلهم المسمى بانجيل متى الأصحاح التاسع عشر الآية السادسة ، « فالذى جمعه الله لا يفرقه انســـان » والمذهبان الارثونكسى والبروتستانتى يبيحان الطلاق فى بعض حالات ، من اهمها الخيـانة الزوجيـة ولكنهما لا يحلان للرجل او المراة المطلقان ان يتزوج او تتزوج بعد الطلاق ، وذلك اعتمادا على ما ورد فى انجيل متى الأصحاح الخامس الآية ٣٢ .

« وأما انا فأقول لكم ان من طلق امرأته الا لعلة الزنا يجعلها تزنى . ومن تزوج مطلقة فانه يزنى بها » .

والمسيحية لا تقيم وزنا لطبيعة الانسان الدنيوية ، حيث لا تجعـل للعاطفة أى قيمة ، ولذا جعلت اهم شىء بالنسبة للانسان سـجنا ابديا ينفره من اقامة الاسرة ويجعله يهرب الى الدير للترهب او التبتـل ، ان كان عنده شىء من الخشية او الخوف من الله ، وان لم توجد الخشية فقد تركت له الحبل على الغارب ليعبث فى الارض فسادا .

فاذا فسدت الزوجة ولم ترع لعقـد الزواج حرمة ولا ذمة واندفعت فى تيـار الفواحش فلا يجوز الانفصـال ، واذا حكم بالانفصال فانه لا يجوز للزوج أن يتزوج بغير الزوجة التى خانت العهد ولم تحافظ على ما أؤتمنت عليه ، وهكذا الحال يكون مع الزوجة التى فسد زوجها وأصبح غير أهل لطاعتها أو فقد مقومات القوامة الزوجية .

ويمكننا من هذا المثال أن نضرب أمثالا توضح للقارىء مدى الخيانة الكبرى والجـريمة العظمى التى ارتكبها الكهنة فى حق الاسرة والمجتمع حتى نفر معظم الشباب من الزواج واعتبره قيدا ابديا لا يمكن الفـكاك منه ، مما كان له أسوأ النتائج وأوخم العواقب .

اذا تقدم احد الشباب لاسرة من الاسر أعجبها منظره ، وأصـله وحسبه ومركزه فزوجته احدى فتياتها ثم ظهر بعد ذلك ان ذلك الزوج مصاب بخلل فى قواه العقلية وتصرفاته مصدرا من مصادر الخطر على من

يعاشره أو يخالطه : أو كان مصاب بمرض معد يكون وبالا على من يقاسمه فراشه ، أو كان به عقم او فاقدا لمقوماته الجنسية ، فان المسيحية لا تسمح بالطلاق ولو كان قيام هذا الزواج شرا مستطيرا على الزوجين والذرية ، وان سمحت بالطلاق فانها لا تسمح للزوجة المجنى عليها ان تتزوج ، وان كانت مجبرة على الطلاق للأسباب السابقة .

ويمكن تطبيق المثل السابق فى حالة ما اذا أخطأ الحظ وأوقع شابا فى زوجة « خدراء الدمن حسناء فى منبت سوء » فلا حيلة لهذا الشاب الا أن يهجر بيته ويتخذ من اماكن اللهو والفجور وكرا وعشا .

ولما كانت الحالات التى ضربنا لها أمثلة تحدث فى كل يوم وليلة ، وما دام المسيحى انسانا وطبيعته من طبيعة البشر ، فمن العسير ان يسير المسيحى على تعاليم المسيحية المستحدثة ، فاضطر الى أن يستحدث قوانين تبيح له حل عقدة الزواج ، وتفك عنه اغلاله ، وتعفيه من اسرار الكنيسة ، وبذلك يكون قد تخلى عن السر السابع من الاسرار الكنسية ، ففر وترك الاسرار تنعى الكهنة الذين استحدثوها .

ولقد تعرض كثير من رجال الفلاسفة المسيحيين لنقد القواعد الكنسية ، وخاصة نظام الزواج ، وأشرنا من قبل الى قول أحدهم ، وهو الفيلسوف الانجليزى (بنتام) ولم يكن الفلاسفة وحدهم الذين خرجوا على النظام الكنسى فقد أباح القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته اذا عقمت وثبت عليها العقم ، كما اعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين لشرلمان من عدة زوجات ، وقد بقى اعتراف الكنيسة بتعدد الزوجات الى القرن السابع عشر .

وان اشهر حادثة زواج وطلاق فى المسيحية على مسمع ومرأى من الكنيسة ورجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم ومذاهبهم هى حادثة طلاق رئيس وزراء انجلترا الاسبق (سيرانتونى ايدن) لزوجته التى هجرته وهربت مع عشيق لها الى أمريكا ، وقد تزوج ايدن بغيرها وهى تحيا معه ، دون أن نسمع اى اعتراض من الكنيسة وكهنتها الذين قاموا بثورة عاتية ضد ادوارد الثامن الملك الاسبق لانجلترا الذى تزوج خليلته المطلقة ، والتى كان يعاشرها وهى فى عصمة زوجها دون اعتراض من الكنيسة على تلك الحياة المحرمة ، ولكن الثورة قامت تقتلع الجذور وتحطم الأسوار حينما طلقت العشيقة من زوجها واراد ان يتزوجها الملك زواجا شرعيا ، وكان للثورة التى قامت بها الكنيسة فى وجه ادوارد الذى استمع

لنداء قلبه وسكتت عن ايدن الذى كان يتولى اكبر منصب فى الدولة ، نتيجة حتمية بأن فضل ادوارد مطالب الطبيعة وترك العرش للكنيسة .

اذن فنظام الكنيسة يعلو تارة وينخفض تارة أخرى ، مما جعل الناس لا تعترف به ولا تقره ، لانه يقيد من الحريات حسب الاهواء ، ويضع الاسرة فى مهب الرياح، ولذا نجد محاكم الغرب تركت ذلك النظام خلف ظهرها وهي تحكم بالطلاق كل يوم وتبيح الزواج كل لحظة دون النظر الى ما استحدثه الكهنة من قيود واغلال .

فجميع الاديان ، ومنها ديانة البراهمة وبوذا وعباد الوثن والمجوس ، حتى المبادىء الوضعية قد سايرت الحياة الواقعية وجارت الطبيعة البشرية فى شئون الزواج ، ولكن كهنة المسيحيين ابوا ان يفرطوا فى مفتاح السجن ، لان فى ضياع هذا المفتاح ضياع لسلطتهم .

والذين تمسكوا بالنظام الكنسى ، غاب عنهم او لم يغب عنهم ، نسوا او تناسوا انحدار الاسرة وانقسام البيوت فليعلموا ان اتخاذ الزوجات للعشاق اصبح من مستلزمات العهد الحاضر ، واتخاذ الازواج للخليلات اصبح من المدنية ، وهجر كل من الازواج والزوجات منازل الزوجية اصبح ضرورة من ضروريات الحياة ، كل ذلك اوحت به النظم الاستبدادية التى وضعها هؤلاء واولئك من الذين قاموا على امور المسيحية ، ولقد اصبح منزل الزوجية مهجورا وخرابا بعد أن كثرت الخلافات وهربت الزوجات مع عشاقهن والمنزل الذى لم يخرب اصبح عشا للغرام تتناجى فيه العيون وتتلاقى فيه المحرمات وتزين جدره صور الخلاعة فى أجلى معانيها ، وبذلك اصبحت الاسرة فى عرف المجتمع المسيحى خرافة ، واختلطت الاحساب والانسان واصبحت علاقات النسب الصحيح بين الآباء والابناء موطنا للشك وعرضة للريبة الشىء الذى تطور فيما بعد لعدم اعتراف الآباء بأبنائهم .

واذا كانت هذه هى مواقف الاديان من الزواج ، فلنعرض موقف الإسلام من هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة التى تعتبر اساسا لبنيان الاسرة والمجتمع ، فبسلامتها تسلم الاسرة ، وبصيانتها تصان الكرامة والا فقل سلام على الاسرة والمجتمع .

الفصـــل الثـــانى

الأسرة فى الاســــلام

لقد اعترف الاســــلام بالاسرة اعترافا ضمنه أن الاسرة هى الدولة الصغيرة ، فيها يتعلم الانسان لغته ، وتتربى فيه روح الانسانية ، ويشب على الروح الاجتماعية ، فينمو ويترعرع على الوفاء ورعاية الحــرمات والايثار وحب الخير والتعاون والتآزر .

لذا احاط الاسلام الاسرة بضمانات وسياج متين ؛ بان فرض على كل عضو من اعضاء الاسرة واجبات ، كما شرع له حقــوقا ، ففرض واجب الطاعة على الابناء نحو آبائهم وامهاتهم ، وذلك وارد فى قول الله عز وجل :

(قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا) سورة الانعام آية ١٥١ .

(وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) سورة الاسراء آية ٢٤ .

ويبين الله فضله على الانسان بفضـــل والديه عليه حتى يشـــكر الانســان ربه على نعمة الوالدين :

(ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب أوزعنى ان اشكر نعمتك التى انعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين) .

سورة الاحقاف آية ١٥

(ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصـــاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) .

سورة لقمان آية ١٥

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولد جاء يشكو اباه الذى يريد منه مالا ، فقبض الرسول على الولد من لبابته وقال له : **(انت ومالك لابيــك)** وجاء رجل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن احق بصحبتى يارســول الله ؟ فأجابه الرســول صلى الله عليه وســلم : **(ابوك وامك)** .

وكما وصى الله الانسان بوالديه حسنا ، كذلك أوصى الله الوالدين بأبنائهم خيرا ، وامرهم بتعليمهم وتربيتهم والاخــذ بيدهم الى مواطن العــزة ، والسير بهم على منهج سليم يصل بهم الى أحسن المســتويات ، ولذا قد راينا فى القرآن مثلا لقمان يعظ ابنه :

(واذ قال لقمان لابنه يعظه يابنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم)

سورة لقمان آية ١٣

وقد وجه الله سبحانه وتعالى الآباء الى المحافظة على ابنائهم حتى جعل مسئولية انحراف الاولاد واقعة على آبائهم .

(يا ايها الذين آمنوا قوا انفســكم وأهليكم نارا وقودها النــاس والحجارة اعدت للكافرين) .

وقد جعل الله الاولاد من أحب المتاع الى النفس فى الدنيا فقال تعالى : **(المال والبنون زينة الحياة الدنيا)** .

وقد كان الناس فى زمن الجاهلية يوئدون البنــات ويتخلصون من الاولاد خوفا من الفقر فنهى الله عن ذلك بقوله تعالى :

(ولا تقتلوا أولادكم خشــية املاق نحن نرزقهم واياكم)

سورة الاسراء آية ٣١

(قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم)

سورة الانعام آية ١٤٠

(يا ايها النبى اذا جاءك المؤمنــات يبايعنك على الا يشركن بالله

شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ... فبايعهن واستغفر لهن ان الله غفور رحيم) سورة الممتحنة آية ١٢ .

وقد فرض الاسلام على الآباء أن يعلموا أولادهم الصلاة فى سن السابعة ، ويعاقبوهم على تركها فى سن العاشرة ، كما فرض عليهم تعليمهم القراءة والكتابة والفروسية ، وان يفتحوا أمامهم أبواب المستقبل بوضع جميع الامكانيات والوسائل التى تجعل منهم رجالا للمستقبل ينفعون أنفسهم ويعملون جنودا فى ميادين الوطنية ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموهم ولا تورثوهم » وفرض على الآباء ايضا ان يكونوا حكماء مع أولادهم ينشئونهم على الشجاعة الادبية وحرية الرأى ، وتدريبهم على التصرف فى شئونهم الخاصة والعامة وتسليمهم مقاليد الامور حتى عرفوا انهم اصبحوا أهلا لذلك .

وان اكبر مثل للحرية الشخصية ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع احدى البنات ، والبنات هن عرض الاب وشرفه ، ويشرفهن يتعلق شرف الاسرة جميعها ، ومع هذا فقد جعل الاسلام لهن الحرية فى اختيار أزواجهن ، فاذا جاء وقت زواج البنت وهى بالغة عاقلة ، كان لها حق اختيار الزوج الذى تريده اختيارا حرا لا اكراه فيه ، على أن يشترك معها وليها بالمشورة والرأى فيمن تختاره ،ولكن ليست المشورة هنا معناها اجبارها على زوج معين وان اختار هو زوجا لا يتم زواجها الا برضاها والا فالزواج باطل .

وقد روى فى هذا الشأن أن فتاة ذهبت الى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تشكو اليها أن اباها أراد تزويجها من ابن اخيه ليرفع خسيستها ، فقالت السيدة عائشة للفتاة انتظرى حتى يحضر النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما حضر صلوات الله عليه وسلامه ، ذكرت له الفتاة ما ذكرته لأم المؤمنين فقال عليه الصلاة والسلام « الأيم احق بنفسها من وليها » .

وقبل الاستطراد فى حقوق باقى افراد الاسرة وهما الزوجان ، لانهما كما قدمنا اللبنتان الاساسيتان فى بناء الاسرة ، فنعرض المساواة بين الرجل والمرأة فى الاسلام ، فقد استحدث الاسلام فى هذا الشأن ما غفلته الشرائع الاخرى على اساس متين من العدل بين الرجل والمرأة والمساواة بين الذكر والانثى .

وقد قضى الاسلام على التفرقة بين الرجل والمرأة فى المرتبة

الانسانية ، كما ساوى بينهما امام القانون فى الحقوق والواجبات ، وقد بين الله فى محكم آياته تلك المساواة بين الذكر والانثى فى الدنيا والآخرة .

(فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض) سورة آل عمران آية ١٩٥ .

(للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) سورة النساء آية ٣٢ .

وان اوضح نقطة فى المساواة بين الرجل والمراة ما ورد فى قول الله فى حق تكريم الله للانسان فى قوله عز وجل فى سورة الاسراء : **(ولقد كرمنا بنى آدم)** فلم يقل عز وجل لقد كرمنا الرجل فقط او لقد كرمنا المراة فقط ، بل كان التكريم شاملا لا تفرقة فيه بين ذكر وانثى .

وكذلك لم يفرق الله بين الرجل والمراة فى الجزاء ، فعندما اغوى الشيطان آدم وزوجته واوقع بهما فأكلا من الشجرة المحرمة كان العقاب واقعا على الجنسين ، حيث قال تعالى فى سورة طه :

(فاكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) .

وكما أباح الاسلام للرجل العلم أباح للمراة ان تتعلم العلم بجميع أنواعه ومراحله ، وكما جعل العلم فريضة على الذكر جعله فرضا على المراة ، وفى هذا يقول الرسول صلوات الله عليه : **(العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)** .

وكذلك اباح الاسلام للمراة مساواة الرجل فى القيام باى وظيفة ، وفى سبيل ذلك اباح الاختلاط بالرجال فى الحياة العامة ، على ان لا يخرج هذا الاختلاط عما قرره الكتاب وقررته السنة .

والاسلام يحتفظ للمراة بشخصيتها المدنية ، وباهليتها فى تحمل الالتزامات واعطاها كل الحرية فى التعاقد ، سواء كان التعاقد بيع او شراء أو هبة ، أو وصية ، كما أقر ادارة المراة لاعمالها والاشراف على مختلف شئونها الاقتصادية ، وبذلك كان حتما على المراة ان تختلط بالرجال .

وان تاريخ المراة المسلمة الحافل بالامجاد وما ادته من جليل الاعمال فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين مدى احترام الاسلام للمراة ، فاسماء بنت ابى بكر التى كانت تعمل محـــل فرقة استطلاع كاملة حيث كانت تنقل الاخبـــار والغذاء الى رسول الله وابيها فى غار حراء اثنـــاء هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعائشة بنت طلحة حفيدة أبى بكر ، التى كانت تناضـــل الرجال بالســـهام والنبـــال لخير دليل على اقرار الاسلام للمساواة بين الرجل والمراة وتقليـــدها مراتب الشرف واعظم النياشين ، ولقد ورد بما لا يدعو الى الشك أن النبى صلى الله عليه وسلم جمع بين الرجال والنســـاء فى الحروب وساوى بينهن وبين الرجـــل فى الغنائم ، وذلك ما فعله مع كعيبة بنت ســـعد فى غزوة خيبر ، وتكريم النبى صلى الله عليه وسلم للمراة لم يقف عند كعيبة ، بل كان لكثيرات منهن ، فها هى امية بنت قيس الغفارية التى اركبها النبى صلى الله عليه وسلم خلفه فى احدى الغزوات وقلدها قلادة ظلت تتقـــلدها حتى ماتت ووضعت معها فى قبرها بناء على وصيتها ، وكم من سيدات خضن المعارك حاملات السيف ممتطيات ظهور الخيل صائلات جائلات فى ميادين الحرب بين القيام على خدمة الجنود وطهى الزاد وتضميد الجرحى ومواســـاة المكلوم .

والاسلام حين ساوى بين الرجل والمراة واباح الاختلاط بين الجنسين ، اشترط عدم الخلوة بين الرجل والمراة ، وتحشم المراة وستر جميـــع اجزاء جسمها ، حتى لا تكون هناك فتنة او ضرر خلقى ، وان تكون حركاتها متوجة بتاج الجد ، فلا يبدر منها ما يبعث على الاغراء او يثير الغريزة ، وان تكون جادة فى حديثها حتى لا يطمع الذى قلبه مرض ، وان تغض المراة من بصرها ، كما اوجب على الرجل أن يغض من بصره ، وقد أوردنا الآيات الآمرة بذلك فى فصل : (الانســـان فى مدرسة الاسلام) من هذا الكتاب .

ولو قارنا بين موقف الاسلام من المراة بعد اليسير الذى سردناه ، وموقف الاديان الاخرى منها ، لوجدنا ان الاسلام قد اعلى قدرها واحتفظ بجميع حقوقها أمام القانون .

والزواج فى الإسلام لا يفقد المراة شخصيتها ولا اهليتها فى التعاقد والتملك ، فتظل المراة بعد زواجها لها حق البيع والشراء والرهن والتنازل والوصية ولها ثروتها الخاصة المستقلة الغير خاضعة لسلطة زوجهـــا ، ولا يعطى الاسلام بل يحرم على الزوج ان ياخذ شيئا من مالها الا برضاها ، على أن يكون رضى خالصا من كل ضغط او اكراه ، وقد رسم القـــرآن

الكريم الخطوط العريضـــة للمحافظة على ثروة المراة وحقوقها فى قوله تعالى :

(ولا يحل لكم ان تاخـذوا مما آتيتموهن شيئا)

سورة البقرة آية ٢٢٩

(وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطـــارا فلا تاخذوا منه شيئا ، اتاخـذونه بهتانا واثما مبينا ؟ وكيف تاخـذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا ؟)

سورة النساء الآيتان ٢٠ ، ٢١

(وآتوا النســاء صدقاتهن نحلة .. فان طبن لكم عن شيء منــه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) سورة النساء آية ٤ .

وفى الوقت الذى اعطى الاسلام المراة كامل حقوقها ، نجـــد أن القوانين الوضعية قد نزعت من المراة جميع أهليتها المدنية ، ولنتخـذ القانون الفرنسى مثلا ، لانه اثر من آثار القوانين الرومانية ، ولان مع الاسف اكثر البلدان الاسلامية تتخذ منه ركيزة لقوانينها ، فالمادة ٢١٧ من القانون الفرنسى تقرر نهاية القراءة ان (المراة المتزوجة لا يجوز أن تهب ولا تنقل ولا ان ترهن ملكيتها بدون اشتراكها فى العقد أو موافقته الكتابية على ذلك) .

كما أن الديانات السابقة على الاســـلام ، سواء كانت وضعية أو سماوية ، لم تظهر للمراة حقوقها ، بل جعلتها شبه متاع مملوك للزينة والترفيه ، وعاشت المراة فى ظل القيود والأغلال التى ادخلتهـا سـجن الرق المدنى ، فلا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، أسيرة لارادة الزوج ، ورهينة لشهواته ونزواته .

ولطبيعة المراة التى ركب الله فيها ارهاف العاطفـــة ، وسرعة الانفعال والحنان الذى قد يزيد عن الحد المألوف مما يفقدها الســيطرة الكاملة على نواحى حياتها ، لهذا السبب ولهذه الطبائع التى جبلت عليها المراة ، والتى لم تســو على هذا المنوال عبثا ، بل خلقت على هــذا الوضع حتى يكون لها من طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها الاساسية ، وهى الأمومة والحضانة على خير وجه ، فالأمومة والحضانة تحتاجان الى عاطفة مرهفة وحنان رحيم أكثر مما تحتاجان الى تفكير وادراك .

لهذه الاسباب جعل الاســـلام القوامة للرجل على المراة ، لان الرجل لا يندفع فى الغالب مع عواطفه ووجدانه اندفاع المرأة ، بل تغلب عليه ناحيـــة الادراك والتفكير ، وهما الصفتان اللتان تحتـــاج اليهما القوامة والرياسة ، وبذلك يمكن القـــول ان صفات الرياسة والقوامة متوفرة فى طبيعة الرجل اكثر من المراة .

ولم يعط الاسلام حق القوامة للرجل على المراة للأسباب السالفة فحسب ، فالرجل فى الاسلام هو المكلف بشئون الاسرة اقتصاديا ، وهو المسؤول عن رعاية الافراد أدبيا وروحيا ، وقد القى الاسلام كل مسؤلية على عاتقه ، يسأل عن كل فرد حتى يبلغ أشده ، وهو المسؤول عن تقويم الاعوجاج فى الابن والزوجة وتعريفهما شئون دينهما ودنياهما ، لقول الله تعالى : **(الرجال قوامون على النساء)** سورة النساء آية ٣٤ .

اذن فالقوامة للرجل فى الاسلام قوامة رحيمة ، أوجب الاســـلام على الرجل العـــدالة والمعـــاملة الحسنة والرفق فى علاج مشاكل الحياة الزوجية ، والتعاون مع الزوجة فى تدبير ســـياسة البيت ، واخذ الامر **بيسر وهوادة** (*)

ولم يعط الانسان حق الطاعة للرجل مطلقة ، بل اعطى المراة الحق فى ألا تطيع زوجها الا فى حدود المعقول والمألوف وقد قال الله تعـــالى فى سورة البقرة آية ٢٢٨ .

(ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجل عليهن درجة) .

وبذلك يكون الاسلام قد اعطى كلا من الرجل والمراة حقوقا تقابلها واجبات ، والواجبات المفروضة على الرجل بينها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه : **((خيركم ، خيركم لأهله))** .

وقد أحاط الاسلام عقد الزواج بضمانات تكفل لكل من المتعـــاقدين حقوقه وواجباته ، فقد ورد أمر الله عز وجل .

(وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شـــيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) سورة النســاء آية ١٩ .

ويوصى النبى صلى الله عليه وسله الرجل بالمراة خيرا فيقـــول : **((النساء أمانة فى اعناق الرجال لا يكرمهن الا كريم ، ولا يظلمهن الا كل لئيم))**

وما رواه مسلم فى صـحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وصيته للرجال بالنساء لخير دليل على أن الاسلام أعطى القوامة للرجل وقيده بقيود سيسئل عنها : **« لا يترك مؤمن مؤمنة ان كره منهـا خلقـا رضى منها آخر »** .

وكما امر الاسلام الرجل بالقوامة الحكيمة امر المرأة بأن تكون مطيعة لربها وزوجها ، قائمة على شئون بيتها فى أمانة واخلاص ووفاء ومحافظة على عرض ذلك الزوج وماله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : **« المرأة اذا عبدت ، وصلت خمسها ، وصـامت شـهرها ، وحفظت فرجها ، واطاعت زوجها دخلت الجنة بغير حساب »** .

ولكى يكون عقد الزواج له من القداسة والهيبة ما يجعل الزوجين يتمسكان به قد جعل الاسلام التروى فى اختيار الزوجة بأن يتخير الرجل امراته وينتقيها على أسس هامة وصفات معينة اشترط الاسلام أن تكون متوفرة فى المرأة ، وذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن « فاظفر بذات الدين تربت يداك » وقد اهتم الاسلام بذات الدين لأن الدين يجمل المرأة جسمانيا ومعنويا ،و بذلك اذا نظر اليها زوجهـا سرته ، واذا غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه ، واذا أمرها أطاعته ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوقوع فى غير ذات الدين فقال **«اياكم وخدراء الدمن** . قالوا :وما خدراء الدمن ؟ يارسول الله ؟ قال : **الحسناء فى المنبت السوء »** .

وكما أعطى الاسلام الرجل حق اختيار الزوجة ، أعطى المرأة حق اختيـار زوجها برضاها ، وأمرها الا تتزوج الا من تتوسم فيه الصلاح والتقوى ، وبذلك تضمن قواما عليها أمينا على القوامة معطيا لتلك القوامة حقها ، وقد سـاوى الاسلام بين الرجل والمرأة فى المسئولية الزوجية ، واشرك معها الابنـاء والخدم لكى تحتفظ الاسرة برباطها ولا يتفـرق شملها فجعل الرجل راعيا فى بيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، والخادم راعيا فى مال سيده ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرجل راع فى اهله ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، والخادم راع فى مال سيده ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

لما كان من اهم مشـاكل الاسرة مشكلة الطلاق التى اتخذها بعض الذين لا دين لهم تجارة وخرجوا عن الحدود المرسومة للطلاق ، ونسـوا أن الطلاق لم يشرعه الاسلام الا لأسباب قاهرة تخرج عن ارادة الزوجين ، مما جعل الخارجين على الاسلام يعيبون عليه هذا النظام ، ومن المؤسف

أن يقلدهم فى ذلك بعض المسلمين فتشدقوا بما يقولون ، وبدلا من دراسة الاسلام على حقيقته والبحث عن جواهره ولآلئه انجرفوا فى تيــار أعداء الاسـلام فناصبوا الاسـلام العداء واتهموه بالرجعية وبلى النظم .

ولمــا كان نظام الطلاق فى الاسلام نظاما شرع على خلاف ما اعتقد الدين يعيبونه وليس العيب فى ذلك عيب الاسلام بل العيب عيب المسلمين الذين لم يقفوا على جمال التشريع الاسلامى وكماله ، وعلى ذلك لم يفهموا حقيقة الاسلام ، ولا املك فى هذا المجال الا ان اقول قول أحد الشعراء مع بعض التغيير حتى يتسق المعنى :

نعيب ديننا والعيب فينــا وما لديننـــا عيب ســوانا

وقبل أن اتكلم عن نظام الطلاق فى الاسلام ، أريد أن اشـــير الى ما سبق أن تحدثت عنه فى الفصل السابق من هــذا الكتاب عن تحريم الطلاق فى الدين المسيحى وما جره من ويلات على الاسر المســيحية ، وما اضطر اليه بعض الفلاسفة المسيحيين ، من نقد وما اضطر اليــه المجتمع المسيحى من الخروج على قواعد الكنيسة ونظمها واقرار الطلاق أمام احتياجات الطبيعة البشرية ومشاكلها التى اجبرت المسيحيين على الخــروج على القاعدة الانجيلية (ما جمعه الله لا يفــرقه انسان) ، (من تزوج بمطلقة فهو يزنى) .

اجل ! لقد أباح الاسلام الطلاق لانه دين تخلى عن الجمود وتمشى مع واقع الحياة وساير الطبيعة البشرية ولم تكن فيه صور للخيال الذى استحدثه رجال الاديان الاخرى .

وواقع الحياة يدل على أن كثيرا ما يحدث فى الحياة الزوجيـــة ما يوجب الطلاق ، بل يجعله قانونا لازما ومحتما لحماية الاسرة او حماية أحد الزوجين او كليهما ، ومسرح الحياة تمثل عليه كل يوم مأســـاة تنبــأ بها التشريع الاسلامى فجعل الطلاق لها علاجا ، وما ذنب الجراح اذا احتاج جسم الانسان الى أن يعمــل فيه بمبضعه ، وكذلك ما ذنب الاسلام اذا راى المجتمع مريضا يحتاج الى علاج كمبضع الجراح .

ومع اباحة الطلاق فى الاسلام اباحة تامة ولكنها مقيــدة ، فقد قيــد الاســـلام الطلاق بقيود جعل ذلك التشريع لا يطبق الا عند الضرورة القصوى التى تكون وسيلة من وســـائل حفظ حقوق كل من الزوجين ودفع الضرر عنهما ، اذ انه لا يصح اللجوء الى الطلاق لاسباب تافهــة يمكن علاجها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ان ابغض**

الحـــلال عند الله الطلاق » ، ولقد جاء فى بعض الروايات انه عند حدوث الطلاق تهتز السموات وتشمئز الملائكة ، وذلك لان الاســـلام يرى أنه لا ينبغى أن يفكر الازواج فى الطلاق لمجــرد تغيير يطرأ على العاطفة ، والمعروف عن العاطفة انها قلب تكره ثم تحب ، فيجب ترك تغير العاطفة للزمن الذى يمكن أن يعيدها الى أصلها .

ويمكن الاستشهاد بواقعة الرجل الذى جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستشيره فى تطليق زوجته التى لا يحبها وتغير عاطفته نحــوها ، فنهره عمر وقال : ويحك ، الم تبن البيوت الا على الحب ؟ فأين الرعاية وأين التذمم ؟ ، وفى قول عمر هذا أن الاسرة والرباط الزوجى لهما أركان غير الحب وان كان الحب ركنا لا غنى عنه ، ولكن الاركان فى بناء البيوت بث المراحم بواسطة الرعاية ، والتذمم الذى ذكره عمر فى قوله هــو أن يكون الرجل مصدرا لجمع الشمل وبناء الصرح والعمل على عدم تشريد الاطفال الذين لا حول لهم ولا طول ، وقد أوصى الله بالاطفال والمستضعفين من النساء فى قوله تعالى :

(المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنـــا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليـــا واجعل لنا من لدنك نصيرا) سورة النساء آية ٧٥ .

لا أن يكون أداة لتفـــريق الشمل الذى يؤدى الى تشريد الاطفـــال وسوء مصـــيرهم ونكد العيش الذى تبتلى به الاسرة فيكون ضحيتهـــا هؤلاء الذين لا حول لهم ولا قوة وبدون ذنب جنوه أو جريرة ارتكبـــوها الا فتور عاطفة الزوج ، وكثيرا ما تتغير العواطف ثم تعود .

وقد قرر الاسلام عدة وسائل لعلاج مشاكل الزوجين ، تحاشـــيا لوقوع الطلاق وازالة أسبابه ، ومنها أنه عندما يحدث نزاع بين الزوجين أن يبحث كل منهما من جانبه عن الوسيلة التى تقرب الى الصلح والوئام ، وذلك لقول الله عز وجل :

(وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) سورة النســاء آية ١٢٨ .

وفى حالة عجـــز الزوجين عن التئـــام جروحهما والصلح بينهمـــا ولم يستطيعا الوصول الى الوفاق بوسائلهما الخاصة ، وجهها الاسلام الى عرض الموضوع على مجلس عائلى ، وقد حدد القرآن أعضـــــاءه

بحيث ان يكون مكونا من احــــد اقارب الزوج واحد أقارب الزوجة ، ثم يعرض الزوجان على هذين الحكمين اسباب الشقاق ،ثم يبدأ الحكمان بدورهما العمل على القضـــاء على هذا الشقاق ، وبذل ما فى وســعهما على ازالة أسبابه واعادة الصــفاء بين الزوجين ، وهذا لقــول الله عز وجل :

(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلهـا ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عظيما خبيرا)

سورة النساء آية ٣٥

وان استحال على مجلس الاسرة التوفيق بين الزوجين ، فتــكون الاستحالة معناها أن مقومات الزوجية قد نفدت بنفــاد وسائل التوفيق ، وهنا يجيز الاسلام الطلاق ، وهدف بهذا الطــلاق الى مصلحة الاسرة نفسها ولتحقيق الصالح العام ، وأعطى فى هذه الحالة الرجل فرصــة طويلة محاطة باجراءات معقدة لعله يراجع نفسه ويبقى على الحيــاة الزوجية .

والفرصة التى أعطاها الاسلام للرجل الذى يطلق امراته طلقــة واحدة رجعية فى طهر لم يتصل بها اثناءه مدة ثلاثة شهور ، يكون له الحرية خلالها ان رأى ثمــة خير ارجاع امراته الى عصمته ، وأن هذه المراجعة تعتبر استمرارا لحياة الزوجية ، وقد حسن الاسلام ، بل وحض على المراجعة والابقــاء على الزوجة الاولى خير من ان يطلق ثم يتزوج بأخرى ، وذلك لقول الله تعالى :

(وبعولتهن احق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا)

سـورة البقرة آية ٢٢٨

اذن فالطلاق فى الاسلام نظام وضع لصــــالح المجتمع ، وحفظت فيه حقوق كل من الزوجين بما يطابق العدالة ، وقد وضعت للطــلاق أسس فلا ينبغى الخروج عليها وقد بين الاسـلام ان الطلاق يشبه عملية بتر لابد من اجرائهــا اذا ما رأى فسادا ، سيحدث للجسم كله بسبب الجزء المبتــور ، وقد أوجب الاسلام على الرجل غرامات مالية وكفالات اقتصادية فادحة كمؤخر الصداق والنفقة وغيرها مما قد يكون سببا من اسباب تراجع كثير من الازواج أو عدم الاقدام على حدوث الطلاق .

ولم اجعل من هذا الكتاب بحثا فقهيا حتى يمكننى الالمام بالمسائل الفقهية المتعلقة بالطلاق ،ولكنى اشرت الى نقطة تبين المساواة وحكمة الاسلام فى التشريع الذى عابه غير المسلمين .

ولم نستطيع أن نغفل نقطة هامة يتشدق بها غير المسلمين ويتخذونها عيبا من عيوب الاسلام ، والنقطة هذه هى نقطة التعدد فى الزوجات ، ويقلدهم فى ذلك بعض من المسلمين الذين قلدوهم فى مسألة الطلاق فقلدوا المتشدقين ونفخوا فى أبواقهم وتكلموا بألسنتهم واتخذوا من حججهم قرينة ضد الاسلام وهم لا يعلمون أن دعواهم باطلة وأنهم عن الحق مبعدون ، وعن الجادة يحيدون لانهم اتخذوا من حجج اعداء الله حجة ضد الاسلام ، وبذلك اتخذوا من هؤلاء الاعداء أولياء لا يألونهم الا خبالا ، ولا يزيدونهم الا خسارا .

وقد اباح الاسلام التعدد كعلاج اجتماعى ناجع فى عدة ظروف تحتاجها طبيعة المجتمع ، فلنفرض أن رجلا كان متزوجا ثم تعرف بأسرة فأحب احدى فتياتها وبادلته الفتاة الحب فما بال الذين يعيبون التعدد . فهل يتخذ هذا الرجل الفتاة خليلة له ؟ ام خيرا له أن يتخذها زوجة ثانية ، ذلك صون للأسرتين .

والاجابة قطعا تحتم أن يتخذها زوجة ثانية ، لان الزوجة الاولى تفضل أن تعرف أن زوجها متزوج بزوجة ثانية من أن تعرف أن لزوجها خليلة او عشيقة ، كما أن ذلك أفضل لاسرة الفتاة وصيانة لشرفها ، لان اسرة الفتاة تفضل أن تكون فتاتها زوجة ثانية او ثالثة او رابعة ، من أن تكون عشيقة او خليلة فتلوث سمعة الاسرة وتجرح شرفها .

ثم نعود ونسأل المتشدقين بعيوب التعدد عما اذا كان هناك رجل متزوج وله أولاد ، ثم تغيرت عاطفته تجاه زوجته ، فهل يتخلى عن زوجته الاولى ويشردها واولادها ، ام أن يبقى عليها ويتزوج بثانية ما دام قادرا على الانفاق وذلك أصون لاولاده وزوجته الاولى التى لو تركها لترك الاولاد لتصاريف القدر ، وبذلك يكثر التشرد فى المجتمع ، ولا يغيب عن بالنا أنه ربما لم يكن للزوجة الاولى عائل غير زوجها .

وليعلم أولئك المفترون على الاسلام أنه لم يفقد من حسابه عند فرض التعدد واباحته أن طبيعة الانسان الدولية تحتم الحروب والمنازعات ، وكثيرا ما تحدث الحرب بين دولتين ، ونتيجة الحرب معروفة وهى أن يموت عدد كبير من الرجال المحاربين وبذلك تتشرد نساؤهم .

ويمكن قبل الاستطراد ان نشير الى الاحصائيات التى صدرت بعد الحرب العالمية الثانية التى بينت انه بعد أن وضعت الحرب أوزارها كان عدد النساء الارامل اكثر من عدد الرجال فى بعض الدول .

لذلك احتاط الاسلام الى هذه الناحية حفظا لهؤلاء النساء اللائى ضحين . . . بأزواجهن فى سبيل الدفاع عن الوطن فأباح تعدد الزوجات ؛ وكانت هذه الاباحة أثرا طيبا من آثار الاسلام ، وقد ظهر ذلك الاثر فى صدر الاسلام ، اذ تزوج الذين نجوا من ويلات الحرب بنساء الشهداء ، واعتبرت الزوجة الاولى أن هذه تضحية يفرضها عليها الدين والواجب والعرف الانسانى بأن تشاركها امرأة الشهيد زوجها تقديرا لاعمال زوجها فى سبيل رفع راية الاسلام وتقديرا للأرملة التى شجعت زوجها على الاقدام على العمل النبيل ، فوجب ألا تتركها تعيش شريدة معرضة للتفريط فى أعز ما تملك المرأة فى هذه الحياة الدنيا .

وكثيرا ما نرى أن شابا تزوج بشابة جميلة موفورة الصحة قامت على خدمة زوجها خير قيام وشاركته فى رفع دعائم البيت ، وبعد مضى مدة الم المرض بتلك الشابة ثم تطور الى مرض عضال اقعدها عن أداء وظيفتها الانسانية فى مملكتها التى خصصها الله لها وهى المنزل ، أو افقدها مقوماتها الجنسية ، فى الوقت الذى لا يزال زوجها الشاب فى ريعان شبابه يتمتع بحيويته . فهل يترك هذا الزوج نهبا لهواه وفريسة لشهوته فيبنى أعشاشه فى الخارج ويعيش فى الظلام ؟ أو يأتى بعشيقة الى منزله فيضاعف آلام الزوجة المريضة ؟ أم أن يترك المريضة وربما لم يكن لها من يعولها غيره ؟ أم أن يتزوج بثانية وربما كانت خادمة أمينة للزوجة الاولى المريضة ؟ .

نعتقد جميعا ان الافضل أن يتزوج الشاب بزوجة ثانية مع الابقاء على الاولى وبفضل ادراكه السليم وتقديره لما ادته الاولى له من خدمات وبفضل توجيهه للزوجة الثانية التى ربما كان ادراكها ناضجا فتتمثل الوفاء فى زوجها الذى لم يفرط فى من اصابها المرض فتكون وفية له ولزوجته الاولى المريضة .

فى هذه الحالة يرى كل ذى مروءة وذى عقل سليم أن الطبيعة البشرية واحتياجات ذلك الزوج هى التى فرضت على ذلك الشاب التعدد ، وأن الاسلام كان على بينة بضغط الطبيعة الانسانية فأباح التعدد وبذلك انقذ المجتمع من كل شائبة تشوبه من شوائب الدنس والفجور .

والاسباب التى من أجلها أباح الاسلام تعدد الزوجات تجل عن

الحصر ، ومع ذلك لم يترك الاسـلام ولم يبح التعـدد اباحة مطلقة ، فقد حرم على المسلم ان يجمع بين اكثر من أربعـة ، كما جعل للاباحة شروطا ، وتلك الشروط جعلت التعدد عند الضرورة القصوى ، وفى حالة الضرورة القصوى كان للتعدد شروط ايضا ، وهو العدل بين النسـاء ، لقول الله سبحانه وتعالى :

(فانكحوا ما طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا)
سورة النساء آية ٣

والعدل بين النساء من اشق ما يمكن ، وقد بين ذلك الله فى قوله :

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النسـاء ولو حرصتم)
سورة النساء آية ١٢٩

والله سبحانه وتعالى يعـلم بحكمته أن من اشق ما يمكن العدل بين النساء فالقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء ، والعادة البشرية أن يشتهى الرجل واحدة من نسائه فيسير وراء قلبـه ويغمرها بالحنـان والعطف ويؤدى لها مطالبها وبذلك ينعدم العدل بين الزوجتين ..

وانى لتحضرنى قصة ليس المهم فيها انها حقيقية أو غير حقيقية ، انما المهم انها تدل دلالة قاطعة على أن العـدل بين النساء يكاد يكون مستحيلا ، فيروى انه كان هناك فى صدر الاسـلام رجل مما كشف الله عن ابصارهم وبصيرتهم متزوجا باثنتين ماتتا فى يوم واحد ، فقام بتكفينهما من قماش واحد بعد غسلهما من ماء واحد ، وطيبهما من طيب واحـد ، وساوى بينهما فى كل شىء ، ولما أراد الخروج بهما الى القبر كان باب البيت ضيقا فاضطر أن يخرج احداهما قبل الاخرى ، وبعد أن قام بدفنهما رجع الى البيت مكلوما متعبـا فنام ، فجاءته التى خرجت بعد الاخرى فى رؤياه تعاتبه ، لانه جعل السبق فى الخروج الى القبر لزميلتها .

ان هذه القصة تبين حكمة التشريع الاسلامى فيما فرضه الاسلام على الرجل من عدل بين النساء اذا اضطر الى التعدد مما يجعله مترددا عن أن يجعل التعدد لشهوة طارئة او لنزوة مستحدثة عمـلا بقول الله عزل وجل :

(فان خفتم الا تعـدلوا فواحدة) سورة النساء آية ٣ .

هذا هو الاسلام بتشريعاته واحكامه وخطوطه العريضة التى رسمها لدعم الاسرة وجمع شملها ، فقد فرض لكل مشكلة علاجا ، ولكل مرض طبا ، ولكل داء دواء ، حتى يخرج المجتمع الاسلامى مجتمعا مثاليا .

الفصـــل الثـــالث

المســـاواة الانســـانية فى الأديان

كثير من الدول الغـــربية يتشـــدق بالديمقراطية والمســـاواة بين الانسـانية ، كما أن بعض الدول الشرقية تنادى بما اسمته الشـــيوعية ، وكل من الفـــريقين يدعى أن فى مبادئه البلسم الشـــافى للانسانية من جراح التفرقة وعدم المساواة ، كما يدعى كل من الفريقين أن العـــالم مدين له بتقرير المساواة بين بنى البشر .

لكن الواقع المؤلم يشـــير الى غير ذلك ، فدول الغرب واكثرها ادعاء للديمقراطية الولايات المتحـــدة الامريكية ، نجد أن قوانينها تتضمن صراحة التفرقة بين بنى الانسان ، فهى تنص فى وضـــوح وبلا مواربة على التفرقة بين السود والبيض وتتجلى هذه التفرقة فى مختلف مظاهر الحياة وشتى أنواع المعـــاملات ، ويمكن الوقوف على مدى ذلك عنـــد زيارتك لامريكا فمدارس البيض غير مدارس السود ، كما تحرم القوانين على السود ارتياد الاماكن التى يرتادها البيض ، كما لا يجوز للأســـود ركوب المواصلات التى يركبها الابيض وأكثر من ذلك جنوب افريقيا .

والدول الغربيـــة الاخرى التى تدعى الديمقراطية ، لا تقيم لتلك الديمقراطية وزنا ، والامكنة التى توجد فيها الديمقراطية هى صـــفحات الكتب وسطور المجلات المليئة بالدعاية ، ففى الوقت الذى نقرأ المبادىء فى الكتب تحض على الديمقـــراطية والمســـاواة الانســـانية نجد حقيقة مرة وأحداثا اليمـــة تظهر ساطعة للعيـــان فى معاملة تلك الدول لشعوب البلاد التى تستعمرها ، أو التى تخضع لسلطانها ، اذ تسقيهم كئوس الهوان ، مترعة ، وتطبق عليهم قوانين جائرة سنتها خصيصـــا لهم ، ولن يستطيع شعب من تلك الشعوب المغلوبة على امرها ، والتى ترسف فى قيود الذل والمهـــانة ان يعلن سخطه على تلك القـــوانين التى تغاير القوانين التى تطبق على رعايا تلك الدول المستعمرة والتى تخـــالف ما أسمته هيئة الامم المتحـــدة بمبادىء حقوق الانســـان ، وان اعترض أو سخط شعب على تلك القـــوانين وما يلاقى من جـــورها وشططها ، فلا جزاء له الا حرب الابادة والسجن والتشريد والنفى لاحراره وثواره .

واذا قارنا دول الشرق بدول الغـــرب ، وناقشـــنا المبادىء التى

تنادى بها ودرسنا الشيوعية ، فنجدنا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، حيث نجد بالتطبيق العملى فروقا طبقية بين طبقات الشعب ، فأعضاء الحزب الشيوعى فى أى بلد دخلتها المبادىء الشيوعية هم الذين يستأثرون بطيب العيش ورغده ، والمراكز الممتازة فى بلدهم ، كما انهم أصحاب الحق فى التمتع بكل شىء ، وما عداهم فهم اقل الدرجات التى تتدرج تنازليا حسب ايمان الفرد للشيوعية وولائه للحزب الشيوعى ، وذلك مقياسه يتوقف على مدى التقرب من أعضاء الحزب الشيوعى ، حيث أن تزكيتهم تعتبر عاملا أساسيا فى صلاحية الفرد ، ولن تجد الشعب فى تلك الدول سعيدا الا على صفحات الكتب الماركسية وبين سطور النشرات التى تؤخذ من مبادىء لينين والتى توزع للدعاية فى الخارج والداخل ، هذا فى داخل البلاد الشيوعية، اما فى خارجها فالعداء مستحكم بين الدول الشيوعية وغيرها ممن لا يؤمنون بمبادئها ، ومن جراء ذلك فالانسانية مهددة بالحروب والدمار نتيجة تطاحن الديمقراطية المزعومة والاشتراكية الموهومة .

ولو بحثنا عن العلة فى عدم تطبيق ما أسماه الغرب بالديمقراطية ، وما اسمته بعض الدول الشرقية بالشيوعية أو الاشتراكية كما يدعون ، ولو نقبنا عن عدم تملك هؤلاء وأولئك للمبادىء السماوية لوجدنا أن سبب ذلك يرجع الى امرين هامين .

أولهما : أن الدول الغربية تؤمن بالدين ايمانا سطحيا ، وذلك فى وجود الدين بمعزل عن الحياة السياسية ، والسياسة هى كل شىء فى الحياة ، فلا صلة بين الدين والسياسة ، وان التغنى بالدين والتدين ما هو الا ميراث الابناء عن الآباء كذكرى عزيزة يحتفظ بها على الارفف وفى الادراج ، فالساسة ومن ورائهم الشعب كله لا يعرفون عن الدين شيئا الا صلوات يؤدونها ودعوات يقراونها وما بقى من اسرار بعد ذلك ونصوص وقواعد فهو للكهنة والبابوات والكرادلة فقط ، لانهم اصحاب حرفة الدين .

والامر الثانى أن الدول الشرقية خرجت على الدين والتدين واعتبرتهما جريمة ، وذلك لانها اجرمت فى حق الدين واعتبرته مخدرا أو مفترا يوقف عجلة التطور ويعوق الانسان عن التقدم ، فاستحدثت قوانين ومبادىء وضعية وظنت أنها وصلت الى الافضل وانتهت الى الاكمل ، وتناست أن الانسان مهما وصل به حد الادراك لا يمكن أن يكون معصوما من الزلل او الخطأ ، كما لا يمكن أن تكون قوانينه أو نصوصه ومبادئه وتعاليمه خالية من الثغرات الناتجة عن الاثرة والانانية التى جبل عليها .

والقوانين الوضعية لا تحوطها الضمانات الكافيـة المستوحاة من الضمير ولا يحميهـا السـياج الروحى الذى يعمل على التطهير الوجدانى الذى يقف رقيبا على المشرع فيحيا ضميره ، ويخشى القوة التى تفـوق قوة البشر ، كما ان القوة الروحية تكون عصمة للحـاكم والمحكوم على **قوة البشر ، كما ان القوة الروحية تكون عصمة للحـاكم والمحكوم على** **السـواء من الزلل والخطـأ ، والقـوانين غير المبنية على طوية مطهرة روحيـا ، هى اشـبه بالجسـد الخالى من الروح والمعرض للتغيير والتبديل طبقـا لمؤثرات الجو ، فتلك القوانين معرضة للتغيير والتبديل طبقا للشهوات والنزوات اما القوانين الالهية فنجدها ثابتـة لا تتغير ، لانها صادرة عن قوة لا تتغير ، وتستطيع ان تغـير ، ومعنى ذلك انك لا تجد لسنة الله تبديلا او تحويلا .**

والمتتبع للأسباب التى حدث بكل من الغرب والشرق على السـواء الى الفرار من الدين يجد ان ذلك نتيجة حتميـة لمـا ادخله الكهنة والقادة المسيطرون على زمام الامور الدينية ،وخروجهم على القـواعد الاصلية التى تمكنهم من الفرار والفكاك من القيـود والاغلال التى وضـعها رجال الدين فى أعناقهم .

فكهنة البراهمة أوجـدوا نظـام الطبقات بعـد أن قسموا الشعب الى قسمين أصليين : الاول هو المشـترك فى الاسرار ، والثانى لا يعرف الاسرار ، ولذا كان الكهنة والقـواد ورجال الحـكم هم المستأثرون بالمناصب ،وذلك لانهم هم المشتركون فى الاسرار ، والاسرار وقف عليهم دون غيرهم ، اما اصـحاب الحرف والتجـارة فكانوا من غير المشتركين فى الاسرار ، ولذا خرج بوذا بتعاليمه الجديدة ثائرا على الاوضـاع فنشر مبـادئه الجـديدة التى اضحت بعـدها البرهمية شـيئا غير مذكور ، اذ كانت اركان تعـاليم بوذا الاساسية المسـاواة بين جسم الامير وجسم المتسـول ، وكذلك نصت تعـاليم بوذا على أن لا فرق بين روحيهمـا مما جعل الاتباع يفرون من الديانة البرهمية واتباع بوذا .

واذا تتبعنا كل الاديان الوضعية نجدها سطورا تشـع أمثلة عليا فى الادب والاخـلاق والمساواة ، ولكن التطبيق كان يخـالف النص ، والفعل يخـالف القول ، وذلك راجع لخلو تلك المبادى من الروح التى تدفعها والقـوة السماوية التى تحيطها بسـياج من الضمير الحى ، وأضف الى ذلك أنانية الكهنة ومدعى التدين ومحترق القيـادة الدينيـة ، كل ذلك جعل الديانات فى واد والاتبـاع فى واد آخر ، اذ اصبح الدين فى عرف الاتباع قضـايا كلامية وحججا منطقيـة ، وحكما وأمثـالا تقال فى الخطب والمناسبات الدينية فقط .

واذا تركنا الديانات الوضعية والمبادىء الكنفوشيوسية والحكم الافلاطونية وامثال ارسطو وعرجنا على الديانة اليهودية التى قسمت بنى اسحق الى فئتين احداهما مباركة وهم ابناء يعقوب والاخرى ملعونة وهم ابناء عيسو ثم قسموا ابناء يعقوب الى مرتبتين : الاولى من ابناء يهوذا وهؤلاء يكون الملك منهم ووقفا عليهم ، وباقى الاسباط ومنهم الكهنة والخدام والفعلة ، ونجد أن احبارهم وكهنتهم وكتبتهم وفريسيهم قد حرفوا التوراة حتى جعلوها تعادى روح الوحدة الانسانية .

حرف اليهود قول انبيائهم بشأن المساواة ، فقصرت التعاليم الانسانية على اليهود فقط ، فالرحمة والعطف والاخاء والمودة وقفا على فقراء اليهود فقط ومحرمة على الغرباء ، وان دل هذا انما يدل على تفسير واحد ، وذلك التفسير واضح فيما نراه من تعاون اليهود فى جميع بلاد العالم على تحطيم مقومات الشعوب التى يعيشون فيها ، كما يوضح لنا قسوتهم واجرامهم في سلب فلسطين العربية من سكانها وتشريد أصحاب البلاد الاصليين ، وابتعادهم عن كل المبادىء الاخلاقية التى نادت بها الديانات والشرائع ، وان معاملة اليهود للعرب المقيمين بين ظهرانيهم لتمثل ابشع الجرم فى حق المساواة الانسانية التى شرعتها السماء فكانت فرضا على اهل الارض .

ولما كانت المسيحية رسالة السماء الى الارض التى جاءت فى عالم محيت فيه آثار الرحمة ، واتجه بكل امكانياته الى المال والمادة على حساب الانسانية المعذبة ، لذا جعلت كل تعاليمها للفت الانظار الى الآخرة وترك الدنيا ، وذلك لان السيد المسيح عليه السلام ارسل فى بيئة مادية جشعة هى بيئة اليهود الذين تركوا الفرائع وحولوا التعاليم السماوية الى تعاليم ارضية خالية من كل مبادىء الانسانية الا على انفسهم .

ومع مادية اليهود فى الوقت الذى جاءت فيه المسيحية ، كان حكم الولاة الرومان الذين جعلوا من المجتمع طبقتين متميزتين : طبقة الاغنياء والاشراف الذين استاثروا بكل شىء ، استاثروا بالطيبات ورغد العيش ، وطبقة الفقراء الذين حرموا من كل شىء ، حرموا من الكرامة وهى ابسط حقوق الانسان .

لذلك كان جل تعاليم المسيحية ينصب على اطعام الفقير ورعاية البائس المحروم ، والتحلى بالفضائل والإخلاق ، والامر بعدم التعدى على الغير ، ومن هنا يمكن القول انها دعت الى المساواة .

الا ان الذين قاموا على شئون الكنيسة قد حرفوا الحقائق ،

وبدلوا الانجيل بأناجيل تثبت على المسيحية ما هى براء منهــا من تهم ، فقد جاء فى الاناجيل الاربعــة منســوبا الى المسيح عليه الســلام زورا وبهتانا ، انه جاء لخــراف بنى اسرائيل الضــالة فقط ، ثم نسبوا اليه انه رفض أن يشفى أو يعطى البركة لامرأة ســامرية ، كما نسبوا اليه القول الى تلاميذه ألا يدخلوا مدن السامريين والامويين للتبشير والدعوة ، مما حول المسيحية الى يهودية جديدة وطائفية مستحدثة ، حيث جعلوا التعاليم المسيحية وقفا على اليهود فقط مما أجبر العقلاء من المسيحيين على الاعراض عن تلك الاناجيل وتلك التعاليم ، ومما جعل اتبــاع المسيحية يغفلون ما جاء فيهــا من تعــاليم الحب والتســامح والعفــو ، وذلك التحريف والتبديل والتغيير فى التعاليم الاساسية للمسيحية اضعف الروح المعنوية والمبادىء السامية فى نفس بنى الانسان من اتباع المسيحية .

وان موقف الكنيسة ورجالها فى الغــرب ، ذلك الموقف الذى ان وصف ، لا يوصف الا بالديكتاتورية المتعجرفة التى سببت الثــورة على الكنيســة والتى انتهت بعــزل الكنيســة عن المجتمع وعزل الدين عن حياة الانسان فى الدنيا ، فلا عمل للكنيسة الا التدخل فى الحريات الشخصية والتمسك بأتفه الامور وأبسطها ، بينما تترك جوهر الحياة ولب المبادىء عرضة لتيارات الالحاد والفساد .

والكنيســة القيصرية ، وقد سمحت لنفسى بأن أسمى الكنيســة فى روسيا بالكنيســة القيصرية ، لانها ارتكبت فى أواخر عهــد القياصرة من الجرائم فى حق الشــعب ما يجل عن الحصر ، فقد وقفت الكنيســة ورجالها مع القياصرة فى واديهم وسايرتهم فى اهوائهم ، وناصرتهم على الحصــول على شــهواتهم ، ولذائذهم وتركت الشعب كله فى واد آخر ، مما جعله يتحلل من تعاليم الدين ويتجه الى التعــاليم الماركسية التى لانها مست منه الوتر الجريح . فظنها البلسم الشافى وانجرف فى تيارها لانها كانت تبدو فى قالب معسول مما جعل الشعب يسير وراء منطقها الخلاب فى غير تعقل وقامت الثورة الحمراء فهدمت بنيان الكنائس ودور العبادة الاخرى على رءوس من بنوها .

وانتقل المرض الماركسى من روســيا الى جاراتهــا كيوغوسلافيا ورومانيا اللتين كانتا معقل المسيحية ومنبع تعاليمهــا ، فاجتــاح الدين امامه وانتشرت العدوى الشيوعية فى اكثر البلاد المسيحية ، وذلك من جراء الخلل الذى أصاب الكنيسة بفضــل كهنتها ، فانتشرت الاشتراكية الكاذبة والمســاواة المخادعة فأوقعت بالمجتمع المسيحى فى شرك الذين حاربوا الله ورسله وحطموا كل دين واعتبروا الدين خرافة .

الفصـــل الرابع

المســاواة الانســانية فى الاســـلام

فى فترة من فترات التضـــارب الخلقى ، وعلى حين غرة من الملل والنحل ، التائهة فى بيداء المبـادىء القائمة على غير أســاس ، نظرت السماء الى الارض فمنحت الانســانية وثبة لم يعرف التاريخ لها نظيرا ، ففى الوقت الذى كان بعض الناس يعتقـدون انهم من نســل الآلهة ، والبعض يؤمن أن الدم الذى يجـرى فى عروقه متخذ أصله ومنبعـه من الدم الازرق الملوكى النبيــل ، كما كانت هنــاك بعض الاديان تفـرق الشعوب الى طبقـات خلق بعضها من راس الاله ، وهى الطبقـات ذات المجد الالهى المســتحقة لحيـاة العزة والسيادة ، وبعضها خلق من قدمى الاله وتلك طبقة المنبوذين .

وفى الوقت الذى كانت تموج فيــه شــبه الجزيرة العـربية بخضم من الفروق الشاسعة فى الحسب والنسب والرزق . حيث كان هنــاك الاعز والاذل والشريف والحقير والغنى والفقــير والسيد والعبد والعظيم والرذيل ، الكل يعبد الوثن ويخضع للصنم ، الا قلة كتابية تؤمن بالله ، ولكن ايمانها كان مشوها مشـــوبا بالشرك والتثليث وعبادة المــال . فكان لتلك الملل والنحل كهنة واتباع لا حول لهم ولا طول .

فى هذه الفترة وفى ذلك الوقت بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام بالاســلام للســادة والعبيد ، العظيم والحقير ، للغنى والفقير ، للناس كافة . جاء محمد عليه الصـــلاة والسلام ليقرر أهم مبدأ فى الحياة طالما حرمت منه الانســـانية زمنا طويلا فجـــاء الاســـلام يقرر مبدأ المساواة باللفظ والنص والتطبيق العملى . جاء ليقـــر وحـــدة الجنس البشرى فى المنشـــأ والمصير . فى المحيـــا والممات . فى الحقوق والواجبـــات أمام القـــانون وأمام الله فى الدنيـــا والآخرة فكان مجيئه وبعثـــه منحة الله الى عباده .

جاء الاســـلام ليقرر أن الاله لم ينسل احدا ، ولم يكن له نسل ، ولم يكن هناك اناس من سلالة الاله .

« قل هو الله احـــد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد » سورة الاخلاص .

« وما ينبغى للرحمن ان يتخـــذ ولدا ، ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا ، لقد احصـــاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » سورة مريم الآيات ٩٢ — ٩٥ .

جاء الاسلام ليقــرر انه ليس هنــاك من هو بدم ازرق ، او من دم أبيض ، أو من دم اخضر ، وليس هنــاك من خلق من رأس الاله ، وليس هناك آخر خلق من قدميه ، فقد جاء يقــرر وحدة الخلق من اصل واحد ، ومعدن واحد ، لا فرق بين الخليقة .

« ولقد خلقنا الانســـان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفــــة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقـــة فخلقنا العلقـــة مضغة فخلقنـــا المضغة عظاما فكســونا العظام لحمـــا ثم انشـــأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين . ثم انكم بعد ذلك لميتـــون ، ثم انكم يوم القيـــامة تبعثـــون » سورة المؤمنون الآيات ١٢ — ١٦ .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجا ، وما تحمـــل من انثى ولا تضـــع الا بعلمه وما يعمر من معمـــر ولا ينقص من عمـــره الا فى كتاب ان ذلك على الله يسير » سورة فاطر آية ١١ .

« الم نخلقــكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، الى قدر معلوم » سورة المرسلات الآيات ١٩ — ٢٢ .

« فلينظر الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخـــرج من بين الصلب والترائب ، انه على رجعه لقادر » سورة الطارق الآيات ٥ — ٨ .

جاء الاسلام مبعوثا به نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم ليقرر وحدة المنشأ وانه لا تفاضل بين النـــاس الا بقدر ما يقدمونه من برهان على الايمان بين يدى الواحد القهار :

« يا ايها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شـــــعوبا وقبائل لتعـــــارفوا ان اكرمكم عند الله اتقـــاكم ان الله عليم خبيـــر »

سورة الحجرات آية ١٣

وان الســـنة احـــد ركنى الاســـلام اللذين ما ان تمســـك بهمـــا المسلمون فلن يضلوا ابدا قد اكدت ما اكده القـــرآن الكريم من المساواة فى الانسانية المشتركة ، فقد وقف رســـول الله صلى الله عليه وســـلم

خطيبا بين المسلمين فى خطبة الوداع وقال : « يا ايها النـــاس » ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لاحمر على ابيض ، ولا لابيض على احمر فضـــل الا بالتقـــوى . الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم الا معلما يلقن المســـلمين ما لقنه الله فالقرآن ينزل على النبى توجيها للمؤمنين فى شخص الرسول صلوات الله عليه وســلامه فتنزل الآيات البينات يلقنها النبى للفقــراء والاغنياء والعبيــد مع الســادة ، بل يؤمر صلوات الله عليه أن يكون مع الذين يؤمنون بربهم ويدعونه بالغــداة والعشى والا يشــغل باله بالذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم مهما كانت منزلتهم .

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغــداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعــد عينــاك عنهم تريد زينــة الحيــاة الدنيا ، ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا »

سورة الكهف آية ٢٨

ولقد كان الله سبحانه وتعالى يعاتب نبيــه عتــابا شــديدا يكاد يبلغ حــد التأنيب ، اذا ما ســاورته ســـاعة حرص بشرى ، طمعــا فى هداية احــد العظماء من قريش ، مثل ما حدث مع الأعمى الفقـــير « ابن أم مكتوم » ومع الوليد بن المغيرة ، وكان سيدا فى قومه حيث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مشغولا بهداية الوليد وجاءه ابن ام مكتوم يطلب شيئا من القرآن ، والنبى مشغول عنه ، فألح ابن مكتوم على النبى ، فتضايق النبى وعبس فى وجهه فنزل جبريل على النبى بعتــــاب الله عز وجل : **« عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعــله يزكى ، او يذكر فتنفعه الذكرى ؟ اما من استغنى ، فأنت له تصــدى ، وما عليك الا يزكى ؟ واما مــن جاءك يســعى وهو يخشى ، فأنت عنــه تلهى كلا انها تذكرة ، فمن شــاء ذكره »** سورة عبس الآيات من ١ — ١١ .

وقد كان النبى صلى الله عليه وســلم حريصا كل الحــرص على تطبيق الاســلام نصا وروحا لانه كان يقول دائما لاصــحابه رضوان الله عليهم « رب اشــعث اغبر مدفوع بالابواب لو اقسم على الله لابره » بل كان يطبق ذلك على نفســـه حيث قال لاصـــحابه « لا تطرونى كما اطرت النصــارى عيسى بن مريم ، فانما انا عبد ، قولوا عبد الله

ورسوله » ، وقد خرج يوما فقام الجالسون تبجيلا واحتراما له ، فقال صلى الله عليه وسلم موجها القول اليهم : « من سره ان يتمثل له الرجال قياما فليتبوا مقعده من النار » .

وأن حادثة ابى ذر الغفارى والعبد الزنجى لاكبر مثل على ما رسمه الاسلام من الغاء الفروق والطبقات ومساواته بين الناس ، وقد قام نقاش بين أبى ذر الغفارى وعبده الزنجى ، وفى زحمة من النقاش قال أبو ذر للزنجى (يا ابن السوداء) فغضب النبى غضبا شديدا وقال صلى الله عليه وسلم والالم مرتسم على وجهه : (طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح ، فوضع ابو ذر خده على الارض وقال للزنجى : (قم فطأ خدى) وفى رواية اخرى : (قم فطأ خد ابن البيضاء) .

وما كان من الله ورسوله من أوامر طبقها الخلفاء الراشدون تطبيقا فعليا فترجموا النصوص الى أعمال ، وهاك عمر يقول : (يا ايها الناس انه والله ما فيكم احد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا اضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه) :

وقد كان عمر رضى الله عنه يوصى الولاة بالمساواة بين الناس فى الواجبات والحقوق ويحذرهم من الحيف او المجاملة أو الخروج عن حدود الله التى رسمها الله ، أو سنة رسول الله التى تركها فقد كتب الى ابى موسى الاشعرى : (من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بن قيس : سلام الله عليك . أما بعد ... آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك . ولا ييأس ضعيف من عدلك) .

وقد اوصى عمر الخليفة الذى سيأتى بعده : « اجعل الناس عندك سواء لا تبالى على من وجب عليه الحق ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، اياك والاثرة والمحاباة فيما ولاك الله » ..

ولم يكن عمر رضى الله عنه يفعل هذا أو يأمر ذلك الا مترسما خطة النبى صلى الله عليه وسلم الذى جاءه اسامة بن زيد ، وكان محبوبا عند رسول الله يشفع فى فاطمة بنت الاسود المخزومية ، وكان قد وجب عليها حد السرقة لسرقتها قطيفة وحليا ، فأنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على اسامة شفاعته قائلا : « اتشفع فى حد من حدود الله »

ثم قام صلوات الله عليه وسلامه خطيبا فى الناس فقال : « انما أهلك من قبلكم ، انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ولقد طبق عمر رضى الله عنه هذا القانون مع عبد الله بن عمرو ابن العاص فقد كان بن عمرو يسابق أحد المصريين فسبقه المصرى ، فاغتاظ بن عمرو وضرب المصرى الذى اقسم انه لابد ان يشكوه الى أمير المؤمنين ، فرد عليه بن عمرو ما معناه انك لن تفعل بشكواك شيئا ، فلن تثمر شكواك فأنا ابن الاكرمين ، وفى زمن الحج ذهب المصرى والتقى بعمر وهو سائر ومعه عمرو وابنه وقدم شكواه ، فظهر الغضب على وجه أمير المؤمنين واتجه الى عمرو وقال : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ، « ثم أعطى الدرة للمصرى وأمره بضرب ابن عمرو قائلا : « اضرب ابن الاكرمين » .

والمساواة فى الاسلام لم تكن وقفا على الرعية ، بل كانت مساواة بين الراعى والرعية فى الحدود والحقوق والواجبات لا فرق بين حاكم ومحكوم ففى الاسلام يجوز للمحكوم ان يوجه النقد اللاذع الى الحاكم اذا ما خرج عن الحدود المرسومة .

فقد اشكى يهودى عليا بن ابى طالب الى عمر بن الخطاب ، ولما جلس عمر للقضاء بينهما خاطب اليهودى باسمه وخاطب عليا وكنيته ، وقد كان الخطاب بالكنية دلالة على التعظيم . فظهر الغضب على وجه على ، فقال عمر لعلى : اكرهت ان يكون خصمك يهوديا ؟ فرد على قائلا : لم اكره ذلك انما كرهت أن لا تسوى بينى وبينه فقد خاطبته باسمه وخاطبتنى بكنيتى .

وتلك حادثة اخرى تبين أن عمر فى مركزه كامير للمؤمنين ، وهيبته وشدته لم يمنع المسلمين من نقده ، فبينما كان يخطب الناس سالهم « ما رايكم فى ان امير المؤمنين راى فاحشة بين رجل وامراة ؟ » فرد عليه على بن ابى طالب قائلا : على امير المؤمنين ان ياتى باربعة شهداء والا اقيم عليه حد القذف ، ثم تلا قول الله تعالى :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون »

سورة النور آية ٤

فسكت عمرو ولم يعين شخص المجرمين .

ولقد ساوى الاسلام بين الناس فى كل شىء حتى فى القتل ، فقد قال الله فى حق القتل العمد « النفس بالنفس » لا فرق بين امير وحقير ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن اخصى عبده اخصيناه ».

هذا موقف الاسلام الذى جاء دواء ناجعا لداء التفرقة ، حرم على المسلمين احتقار الغير او الاقلال من شانه . قال الله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خير من هن »

سورة الحجرات آية ١١

نعم انها كانت منحة السماء الى الارض ورحمة الله بعباده ، كانت انقاذا للبشرية من ربقة الذل ، انما كانت رسالة الله التى أخرج بها عباده من ظلمات الطبقات الى نور المساواة ، اظهرت للناس حقوقهم فلا سادة ولا عبيد ، انما كان الجميع امام الله سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على اعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى .

الفصـــل الخامس

المســـاواة الاقتصـــادية فى الاديان

ان الاديان السابقة على الاســـلام لم تعن بالاقتصاد على انه المعنى المفهـوم من الاقتصـــاد ، فالاقتصـــاد بمعنـــاه المفهـوم ان يكون شاملا لنواحى الحياة الخاصة بالمال وتنظيمها تنظيما يشمل احتياجات المجتمع وضرورياته ، فينظم الاعمـــال والانفـــاق وطرق الكسب وغـــيرها من السياسة المالية .

أما نظرة الاديان الى المـــال فهى اعتبـــار المـــال على انه كسب بالطبيعة ،وان كانت قد ضربت الامثال الضئيلة على ان المـــال عصب الحيـــاة ، الا أنهـــا لم تضع نظـــاما ينظم سياسته أو يحـــدد طرق كسبه ، لذلك كانت سياسة المـــال تســـير حسب مقتضيات الحاجة اليه ، وكان تطور النظام تبعـــا لتطور المجتمع دون ان يكون له سند او اساس يوحى به دين أو تشير اليه عقيدة .

فالاديان القديمة كما بينـــا سالفا قصرت تعاليمها على الحب والاخاء والتعاون والعطف على الفقـــير ، أما من ناحيـــة المـــال فقد أوصت بالعمل والكسب ، ولكنها جعلت اهتمامها الاكبر مقصورا على النواحى العقائدية اكثر من النواحى الدنيـــوية ، وبذلك لم تكن هنـــاك اشـــارات تفيد انها اهتمت بتنظيم الميزان الاقتصـــادى ، اللهم الا بعض الفلاســـفة أصحاب المبـــادىء والمدارس الذين وضعوا المبـــادىء الخاصـــة بتداول السياسة الاقتصادية وذلك أمثـــال ارسطو الذى وضع كتـــابا عن الســـياسة ضمنه اشـــارة الى تحـــريم الربا ، وبالطبع كانت قاصرة لانهـــا لم تلم بجميع شئون السياسة المالية .

اما الديانات السماوية فمنها ما اهتم بالمـــال على الاســـاس الاول فى الحياة ولكن هذا الاهتمام تطور الى عيب من العيوب الاجتماعية حيث بلغ الاهتمام بالمـــال ان وصـــل الى درجة العبـــادة ، فأصـــبح المـــال هو الهدف الاول والمعبود من دون الله ، وبذلك طغت المـــادة على الروح ، فتحجرت تلك الديانة واصبحت مادية مطلقة ، وتلك هى ديانة اليهود .

فاليهودية بأسفارها مليئة بالوصـــايا التى تشـــير الى ســـياسة

المـــال ، وتنظيم الســـياسة الاقتصادية ، ولكنها سياسة محرفة خرجت عن الوصايا التى جاء بهـــا انبياء بنى اسرائيل ، الا فيما يختص باليهود انفســـهم ، فقد جعلت ســـياسة المـــال والاقتصـــاد ســـياسة محلية داخلية على احدث النظم الانســـانية ،اما اذا خرجت تلك الســـياسة واصبحت خارجة عن حيز اليهود فهى استغلال وغش وسرقة .

اما ما ورد فى أسفار اليهود عن التوراة بعد التحريف فهو اقتصاد مزيف حيث لا مساواة فيه بين الانسانية جميعا انما جعل المساواة بين المجتمع اليهـــودى فقط ، فقد بذلت الاســـفار المواعظ والوصـــايا للشعب اليهودى فأوصت بالعمل والكد ، فقد جاء فى العهـــد القـــديم ما يشجع على العمل وينهى عن الكســـل ، ففى ســـفر الامثال الاصـــحاح العشرين من الآية الثالثة عشرة يقول سليمان : « لا تحب النوم لئلا تفتقر وتفتقر ، افتح عينيك تشبع خبزا » وفى نفس الســـفر يقول سليمان فى أمثـــاله : (المشـــتغل بأرضـــه يشبع خبزا ، وتابع البطـــالين يشـــبع فقـــرا) كما يقول سليمان : اما يد المجتهد فتغنى ويد البطال تفقر .

وقد جاء فى حق الربا وتحريمه ما يقول ســـفر الخروج : (ان اقرضت فضـــة للفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى) وفى ســـفر التثنيـــة : (لا تقرض اخاك بربا ، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا) وفى سفر نحميا (انى بكت العظماء والولاة وقلت لهم آنكم تأخذون الربا كل واحد من اخيه) .

والربا محرم فقط بين اليهـــودى واخيـــه ، أما فهو حلال بين اليهودى والاجنبى ، ودليل ذلك ما جاء فى الاصـــحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج (للأجنبى تقـــرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرضـــه بربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك) .

وكل ما جاء بعـــد ذلك فى التوراة فهـــو حض على الانفـــاق على فقراء اليهـــود دون غيرهم ، واما كتـــاب التلمود الذى اســـتحدثه اليهود خاص بأعمال الزراعة والحصاد والتجارة فتتشع منه الانانية اليهودية ، وســـواء كانت التـــوراة المحرفة أو التلمود المستحدث فهما يُدلان دلالة قاطعة على عدم المساواة بين الانسانية فى الديانة اليهودية .

وجاءت المسيحية عقب الديانة اليهودية والعالم ينخر بالمبادىء المادية التى خلت تماما من كل القيم الانســـانية ، لذلك لجـــأت الى اعلاء قيمة الروح والحط من قيمة المادة والتقليل من شـــأن المال حتى تعود بالعالم الى الحياة السليمة ، وتنقى النفوس وتطهر الوجدان .

فقد جاءت فى العهد الحجرى للنفوس وفى العهد الرومانى بقوانينـــه

المنظمة فلم تكن فى حاجة الى تنظيم الحيـــاة الدنيــا ، بل كان كل رسالتها تنقية النفوس من الشوائب المادية والالحادية ، فنفرت من المال واكتنازه ، وذلك وارد فى انجيل متى الاصـــحاح الســـادس الآية الســـادسة عشرة (لا تكتنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفســـد الســـوس والصـــدأ وحيث ينقب الســـارقون) كما جاء فى نفس الاصحاح : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لانه اما ان يبغض الواحـــد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويحتقر الآخر ، لا تقدرون أن تحترموا الله والمال) كما جاء فى رســـالة العبرانيين : (لتكن سيرتكم خالية من محبة المال ، كونوا مكتفين بما عندكم).

وكانت المسيحية تحض المسيحيين على أن يعيشـــوا على الكفاف ، كما جاء فى الصـــلاة التى علمها لهم المسيح عليه الســـلام : (خبزنا كفـــافنا اعطنا اليوم) كما امرتهم ان يتركوا الدنيا ويتجهوا الى الآخرة ، وكانت تعـــاليم المســـيحية تقلل من شـــأن الاغنيـــاء ، وذلك ان المسيح أشـــار فى كلامه الى ان دخـــول الجمل من سم الخيـــاط اسهل من دخول الغنى الجنة ، بل كان يحتم على الذين يعمـــلون بالتبشـــير ان يبيعـــوا كل ما يملكون ويتصدقوا به على الفقراء ثم يبداون العمل بالتبشير .

ولكن تعاليم المسيحية لم تمنع بعض القـــائمين على الشئون الدينية من أن يشرعوا فى الاقتصـــاد ، ولك أمثـــال (مارتن لوثر) الذى كتب فيما يختص بالربا وتحريمه وسماه بيع النسيئة وهـــو ما يسميه الاسلام بيع النجاش وهو يشـــبه المســـاومة والمضاربة التى تكون باتفاق التجار لرفع الاسعار ، فقد قال لوثر : **(ان هناك اناســـا لا تبالى بضمائرهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة مقابل اثمان غالية تزيد على اثمانها التى تباع بها نقدا ، بل هناك اناس لا يحبون ان يبيعوا شيئا بالنقد وؤثرون ان يبيعوا سلعهم جميعا على النسيئة) ثم قال : (ان هذا التصرف فيه مخالفـــة لاوامر الله ومخالفة للعقـــل والصـــواب ، ومثله فى ذلك مثل مخالفة الاوامر الالهية والاوامر العقلية ان يرفع البائع السعر بعلمه) .**

والخلاصة أنه لا يمكنك ان تجد للمـــال ســـياسة فى تلك الاديان ، بل تركت الاديان التشريع الاقتصادى لانانية الانسان فيبغى القـــوى على الضعيف ويشبع ذلك القوى ويجوع الآخر ، ويلجا الجوعان تحت تأثير جوعه الى سرقة من اتخمه الشبع ، وبذلك يختـــل نظام المجتمع ، لانه لا تنفع المثل العليا مع الجـــوع ، وماذا تفعل مبادىء الاخلاق والروح مع البطن الخاوى الذى يمنع العقل عن التفكير الا فيما يعود عليه بالشبع دون التفكير فى ان هذا حلال وذاك حرام .

الفصـــــل السادس

المســـــاواة الاقتصـــادية فى الاســـــلام

ان شريعة الاســــلام تقرر المساواة بين الناس فى شئون الاقتصاد ، الى شـــاو رفيع لم تصله اى شريعة اخرى ، حتى اصبح المجتمع الاسلامى فى الزمن الســـالف مجتمعا مثاليا ، حيث شـــجع الاســـلام على العمل ونظم العلاقة بين العـــامل ، وصـــاحب العمل واعطى كل مجتهـــد جزاء اجتهاده من ثروات الحياة الدنيا .

يفسح الاســـلام المجـــال أمام الناس جميعـــا للتفـــوق والطموح ، ويحقق تكافؤ الفـــرص بين الناس فى شـــئون الاقتصاد ، كما يعمل على استقرار التوازن الاقتصادى فيحـــرص على تقليل الفـــروق بين الطبقات ويحول دون تضخم الثروات .

ويقيم الاسلام جميع العـــلاقات الاقتصادية بين النـــاس على دعائم من التعاضد والمحبة والاخوة وانكار الذات ، وبذلك يكفـــل لكل فرد حياة انسانية كريمة يشـــعر فيها أنه عضـــو فى مجتمع فاضـــل يسوده التعاون والتآزر بين المسلم واخيـــه والمسلم وبنى الانســـان جميعا ، وبذلك يكون قد ضرب أكبر مثل للضمان الاجتماعى والتكافل الانسانى ، وصدق الله العظيم « **ذلك الدين القيم ولكن اكثر النـــاس لا يعلمون** » سورة يوسف آية ٤٠ .

والاقتصاد فى الاســـلام أساسه العمل المنتج والعـــامل المخلص ، فاذا ما صلح العامل صلح العمل ، وصلاح العمل يحتاج الى صـــلاح صاحب العمل ، ولقد كان موقف الاسلام فى ذلك رفيعا للغاية ، حيث فرض على العامل واجبات وسن له حقوقا يلتزم بها صاحب العمل .

فقد حض الاسلام على العمل ونهى عن الكســـل : « وهو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » سورة الملك آية ١٥ وها هو رســـول الله صلى الله عليه وسلم يشيد باليد العاملة ويعلن حب الله ورسوله للعبد الذى له حرفة يتكسب منهـــا او صنعة تدر عليه كسبا « تلك يد يحبها الله ورسوله » ، « ان الله يحب العبد المؤمن المحترف » ، « ما أكل احدكم طعاما قط خيرا من عمل يده » .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الرقابة على العامل من الله ورسوله والمؤمنين ، وتلك حصانة للعامل روحية تولد فيه خشية العقاب فى الآخرة من الله عز وجل وخشية الجزاء الدنيوى من صاحب العمل : **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »** سورة التوبة آية ١٠٥ .

وبعد أن عنى الاسلام بدفع العامل الى العمل ووضع له نظام ذلك العمل واحكم الرقابة الداخلية والخارجية عليه ، فرض للعامل حقوقه لدى صاحب العمل ، وقد ورد حديث قدسى عن الله عز وجل رواه المصطفى صلى الله عليه وسلم عن ربه : « ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وقد قال صلى الله عليه وسلم « اعطوا الاجير حقه قبل أن يجف عرقه » .

ولم يترك الاسلام العامل مهما كان كسبه يتصرف فى كسبه كيفما شاء ، بل عنى بتوجيهه الى خير سبيل الانفاق والعدل فى انفاقه بتوجيه المال الوجهة الحسنة فينتظم امامه سبيل الحياة الصحيحة ، وبذلك يحيا حياة سعيدة : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا » سورة الاسراء الآيات من ٢٦ — ٣١ .

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » سورة الاعراف آية ٣١ .

« والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » سورة الفرقان آية ٦٧ .

ولم يحرم الاسلام على الانسان التمتع بنعم الله عليه ، ولكن حرم الاسراف واحل الاقساط والعدل .

« قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » سورة الاعراف الآيات ٣٢ — ٣٣ .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : اذا آتاكم الله مالا فلير اثر نعمة الله عليك وكرامته » .

والاسلام كما ترى طالب بالقصد فى الانفاق ، لان المال كثيرا ما يكون مفسدة ، والمفاسد وليدة الترف الخارج عن الحد المألوف ، ولم يغفل الاسلام هذه الناحية فقد أشار الى مفاسد المترفين .

« وما ارسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون ، وقالوا نحن اكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين »

سورة سبأ آية ٣٤ ، ٣٥

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم فى الحياة الدنيا ، ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مماتأكلون منه ويشرب مما تشربون »

سورة المؤمنون آية ٣٣

ولم يقف ضرر المترفين على انفسهم وحدهم ، بل امتد ضررهم الى عشيرتهم واهلهم ، فخدعوهم وجروهم الى الضلال ، واجبروهم على العصيان ، ووجهوهم الى الكفر والفسوق ، حتى اطلق على هؤلاء الاتباع انهم ضعفاء ، وقد روى القرآن الكريم ما جاء على لسان هؤلاء الضعفاء من ندم على ما فات وطاعتهم لسادتهم وكبرائهم :

« وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » .

سورة الاحزاب الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

وقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم بيوت المترفين ببيوت الشياطين وذلك فى الحديث الذى رواه ابو داود « تكون ابل الشياطين ، وبيوت الشياطين ، فأما ابل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات قد اسمنها ، فلا يعلو بعيرا منها ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، واما بيوت الشياطين فلا اراها الا هذه الاقفاص التى تستر الناس بالديباج » ويقول الله عز وجل :

« وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » سورة القصص آية ٥٨ .

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهـا القول فدمرناها تدميرا » سورة الاسراء آية ١٦ .

ومن جرائم المترفين الربا وقد حرم الاسـلام الربا لانه جزء من مفاسد المجتمع ، حيث تستغله فئة قليلة اوتيت من الله عز وجل فضـلا من السعة ، ضد فئة اجبرتها ظروف الحيـاة وكلكل الدهر على ان تقترض ما قد تحتاجه لتذلل ما يعترضها وما تفاجا به من تصاريف القدر .

فالمرابى شـخص يستغل حاجة النـاس وعـوزهم فيتحكم فيهم وفى رقابهم ، وذلك بتحميلهم ما لا طاقة لهم به ، ياتيـه الشخص وهو فى حاجة الى بعض المال على ان يرده اليه بعد مدة معينة ، فيقدم له المبلغ المطلوب على ان يقيده بقيـود تجبره على رد المبلغ المقترض مع زيادة فاحشـة ، وكم خربت بيوت كانت قائمـة نتيجة التعـامل بالربا ، وكم من اغنياء انتزعت املاكهم انتزاعا من اصـحابها فاصبحوا فقـراء نتيجة التعامل بالفـوائد المركبة التى ابتـدعها المستعمر وفئة قليلة من المستغلين الجشعين .

ولذلك كان من اهم ما عنى به الاسلام وحرمه تحريما قاطعـا ذلك الداء الوبيل الا وهو الربا الذى يعمل على تحطيم اركان الاسر ثم المجتمع ، فقد قال الله تعالى :

« الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا ، واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ومن عاد فاولئك اصـحاب النـار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم » سورة البقرة الآيتان ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

ويقول رسـول الله صلى الله عليه وسلم : **« لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، ثم قال : وهم سوء »** .

وعند تحريم الاسـلام للربا لم يغفل تنظيم سـد حاجات النـاس وتفريج كرب المحتاجين ، ووضع نظاما للقـروض ، وحث على الاقتراض بالثواب الجزيل يوم القيامة ،وتوعد المقترض الذى لا يرد ما اقترضـه بالعـذاب الاليم ، فقد قال الله سبحانه وتعالى يحث الدائنين على الصبر على المدينين حتى يفرج الله عسرتهم ، كما امرهم باعطاء القروض للمقترضين فى قوله عز وجل :

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » سورة البقرة آية ٢٨٠ .

وقال رسو الله صلى الله عليه وسلم : **« الحسنة بعشر امثالها والقرض بسبعين »** ولما سئل عمر بن الخطاب عن السبب فى جعل القرض بسبعين قال : آخذ الحسنة محتاج فرض الله له الصدقة ، أما آخذ القرض لم يفرض الله له صدقة وحاجته طارئة ربما جعلته فى عداد الفقراء لو لم يقرض ، فبقرضه يكون قد منع عبدا من عباد الله أن يفتقر . وقد روى البخارى والترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : **« رحم الله رجلا سمحا اذا باع ، واذا اشترى ، واذا اقتضى »** وقد بنى هذا الحديث على الخط العريض الذى رسمه الله سبحانه وتعالى فى قوله فى سورة البقرة فى الآية ٢٦٣ .

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم »

سورة البقرة آية ٢٦٣

كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : **« من سره ان ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه »** ، وقد روى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم : **من أنظر معسرا ووضع له اظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله »** .

واما فى وجوب سداد القرض فقد وردت احاديث كثيرة ناخذ منها على سبيل المثال ما رواه البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اخذ اموال الناس يريد اداءها ادى الله عنه ، ومن أخذها يريد اتلافها اتلفه الله » وقد روى الخمسة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :« مطل الغنى ظلم » وقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « ارايت ان قتلت فى سبيل الله يكفر الله عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ان قتلت وانت صابر محتسب مقبل غير مدبر ، ثم قال الرجل كيف قلت ؟ فأعاد عليه فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم الا الدين فان جبريل اخبرنى ذلك » .

وحينما أحل الله البيع وحرم الربا أحاط البيع والشراء لانهما عمد الحياة الاقتصادية بسياج متين ، ولقد اشترط الاسلام خلو البيع والشراء من الغش والكذب والنجاش والمنافسة غير المشروعة والمضاربة التى تؤدى الى رفع السعر والتآمر والتواطؤ بين التجار ضد المستهلكين ، وأن يكون ذلك البيع مبنيا على التبيان والصراحة واظهار عيوب

البضاعة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البيعان بالخيار ما لم يفترقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من غش أمتى فليس منى » وقال صلوات الله عليه : أنه لا يربو لحم نبت من سحت الا كانت النار أولى به ، وقال سلام الله عليه : « لا يكسب عبد مالا حراما فيتصدق منه فيقبل منه ، ولا ينفق فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره الا زاده الى النار ، ان الله لا يمحو السيئة بالسيىء ، ولكن يمحو السيىء بالحسن ، ان الخبيث لا يمحو الخبيث » . وقد روى الرسول صلوات الله عليه حديثا قدسيا عن ربه قا : « لا تناجشوا ولا تنافسوا ولا يبع بعضكم على بيع بعض » .

واتماما لتنظيم الحياة الاقتصادية ، فقد حرم الاسلام احتكار ضروريات الناس والتحكم فى اقواتهم ، وحبسها طمعا فى بيعها فى السوق السوداء ابتغاء الكسب الحرام ، حيث أن كل كسب يأتى نتيجة الاحتكار ، أو حبس البضائع أو التجارة فى السوق السوداء ، فهو حرام ، وهؤلاء الجشعون من التجار والمحتكرون قد برىء الله ورسوله منهم يوم القيامة ، لان القاعدة الاسلامية بنيت على القول (لا ضرر ولا ضرار) واليك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المحتكرين والتجار الجشعين : « من احتكر طعاما اربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » رواه الامام أحمد فى مسنده ، وقد روى مسلم وأبو داود والترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من احتكر فهو خاطىء » .

وان كثيرا من الناس ليتخذون من الوصول الى مآربهم سواء عن طريق الاحتكار او المضاربة شتى الطرق الملتوية للوصو الى غاياتهم دون الوقوع تحت طائلة القانون ، سواء كان بالرشوة أو المحسوبية لدى القائمين على أمور تموين البلاد ، وبذلك يحصلون على ما ليس لهم حق فيه أو يسبقون غيرهم من أصحاب الحقوق ، وذلك بالصلات المحرمة بمن فى يدهم الامر الذين أضعف الله نفوسهم ويتناجون بالاثم والعدوان ، ولذا نجد أن الاسلام كان حريصا كل الحرص فحرم ذلك وتوعد الراشى والمرتشى والمحسوبية بالعذاب الاليم حيث قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » سورة البقرة آية ١٨٨ .

وكم بلى الناس فى كل مكان وكل زمان بالحكام الذين لا خلاق لهم والذين استغلوا نفوذهم وسلطانهم واتخذوا من وظائفهم طريقا للكسب غير المشروع مما جعلهم يثرون على حساب المجتمع الذى يتلظى بنار الجوع والفقر والجهل والمرض ، ولا هم لهؤلاء الا جمع الاموال واكتنازها إلا ينفقون منها بل يجعلونها أداة لاذلال المجتمع وهتك عرضه فينطبق عليهم قول الله تبارك وتعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »

سورة التوبة الآيتان ٣٤ ، ٣٥

هؤلاء الحكام الذين تجردوا من كل خلق كريم وحرموا أصحاب الحقوق من الحصول على حقوقهم ، حتى اختل الامر واصبح صاحب الحق وهو صاحب الترضية للحاكم والمحسوب أو المنسوب لذلك الحاكم .

وقد كان الاسلام حريصا كل الحرص على ان يتلاشى هذا المرض الخطير من المجتمع الاسلامى ، فقد أمر بمحاسبة الحاكم والولاة على مصادر الزيادة فى اموالهم التى كانوا يملكونها قبل توليهم مناصبهم ، ومصادرة ما لم يستطيعوا اثبات مصدره ، أو كان مصدره استغلال النفوذ والسلطان ، وان التاريخ الاسلامى لغنى عن البيان ، فهو ملىء بالحوادث التى تسجل مواقفه الخالدة فى هذا الشأن وانه ليمكننا أن نقص بعضا منها حدث فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام وبعضا حدث فى زمن الخلفاء الراشدين الذين ساروا على نهج الرسول واتبعوا امر الله ورسوله .

فقد اقبل يوما على النبى صلى الله عليه وسلم ابن اللبتية وهو من الازد ، وكان النبى قد ولاه على الصدقة ، فلما جلس الرجل بين يدى النبى قسم ما معه وقال : « هذا لكم وهذا اهدى لى » فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ثم قام خطيبا فى الناس وقال « أما بعد فانى أستعمل اناسا منكم على أمور مما ولانى الله فيأتى احدكم فيقول هذا لكم وهذه هدية اهديت لى ، فهلا جلس فى بيت أبيه او بيت امه فينظرأيهدى اليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده لا يأخذ منه شيئا

الا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتــه ان كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » فترك ابن اللتبية ما اهدى اليه .

وفى عهد عمر كان يصادر ما كان يكســبه الولاة من أعمال لا يجوز لهم الاشتغال بها كالتجارة وما اليها والهدايا ، وكل ما اكتسبوه نتيجــة استغلال النفوذ ، وقد فعل ذلك مع ولاته على البصرة ، فصادر جميع ما شك فيه أنه جاء اليهم عن طريق مناصبهم التى ولوها .

ويذكر لعمــر قصة فى هذا الشأن مع ابى هريرة ، وكان قد ولاه على البحرين ، فبلغه انه اثرى فى اثناء ولايته ، فصادر جميع ما شك فى مصدره منها ، وقد دار بينهما الحوار الآتى :

عمـــر : استعملتك على البحرين وانت بلا نعلين ، ثم بلغنى أنك ابتعت أفراسا بألف وستمائة دينار .

ابو هريرة : كانت لنا أفراسا تناتجت وعطايا تلاحقت .

عمـــر : حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فاده .

ابو هريرة : ليس لك .

عمـــر : بلى ، والله أوجع ظهــرك ، ثم قام اليــه بدرته فضربه حتى أدماه .

ابو هريرة : احسبتها لله .

عمـــر : ذلك لو اخذتها من حلال واديتها طائعا ، اجئت من اقصى البحرين تجبى النــاس لك لا لله وللمسلمين ؟ ما رجعت بك اميمــة الا برعية الحمر .

وقد قاسم عمر بن الخطاب رضى الله عنــه ســعد بن ابى وقاص والى الكوفة ماله حين شك فى مصدره ، واتخذ معه ما اتخذه مع ابى هريرة وولاة البصرة . وقد حدث مع عمرو بن العاص والى مصر ما حــدث مع أبى هريرة وغيره ، فانه قد بلغ عمر بن الخطــاب أن عمرو بن العاص قد أصاب ثراء ومالا اثناء ولايتــه على مصر فدارت بينهما الرســائل الآتية :

رسالة عمر : انه فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنيــة وحيوان لم تكن حين وليت مصر .

رد عمــــرو : ان ارضـــنا مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضـــلا عما تحتاج اليه نفقتنا .

رسالة عمر : انى قد خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتـــابك الى كتاب من أقلقه الاخـــذ بالحق ، وقد سئت بك ظنا ، ووجهت اليك محمـــد بن مسلمة ليقاسمك فأطعه ، واطلعه واخرج اليه ما يطالبك به ، واعفه من الغلظة عليك فانه برح الخفـــاء . فأذعن عمرو واطلع محمد ابن مسلمة على كل شيء واخرج اليه ما طالبـــه به وتركه يقاسمه ماله .

وقد حرم الاســـلام اغتصاب حقـــوق النـــاس سواء عن طريق الحكام أو المحكومين ولم يكن عمر حين كان يحاسب الولاة والحـــكام يغفل محاسبة نفســـه وبيته ، فقصة امرأته التى اشتهت الحلوى ، وادخرت من قوتهـــا ثمنهـــا وأعطته لعمر لشرائها فما كان من عمر الا أن اخـــذ ثمن الحلوى وضمه الى بيت المال قائلا : ان هذا فضـــل من قوتنـــا فبيت المـــال أولى به ، مثل حى كان عليه حكام المسلمين من عدل وخوف من الله وخشيته فى السر والعلن ، وكيف لا يحـــدث ذلك من عمر وهـــو الذى آلمته معدته من كثرة أكل الزيت فى عام الرمادة ، فضربهـــا بكفـــه قائلا لبطنـــه : « قـــرقر أو لا تقـــرقر فلن تأتدم السمن حتى يخصب المسلمون » .

وقد حرم الاســـلام اغتصاب الحقوق ســـــواء كان الاغتصـــاب من الحاكم للمحكوم او المحكومين بعضهم بعضـــا ، فقد قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « من اقتطع مال امرىء مسلم بغـــير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان » وقال عليه الصلاة والسلام « من ظلم من الارض شيئا طوقه الله به من سبعة اراضين » .

وربما يخلط بعض الناس بين معنى الاغتصـــاب ومعنى التأميم والمصـــادرة ، فالاغتصـــاب مبنى على الاثرة والانانية الفردية ، كمطمع فرد فى مال اخيه ، او حاكم نظر الى ما متع الله به احـــد الناس من نعم فاراد اغتصابها لصـــالحه ، اما التأميم والمصادرة العامة فهى لصـــالح المجمـــوع بناء على القاعدة التى رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس شركاء فى ثلاث ، المـــاء والكلأ ، والنار » .

وهذه القاعدة تفيد أن الناس جميعا لهم حق الاستفادة من هـــذه المواد الطبيعية بجانب ما فرضه الله فرضا من الاقبال على النعم كالهواء

والعلم ، وقد روى الامام أحمد فى مسنده وأخرجه أبو عبيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتطع أرضا يقال لها النقيع بالمدينة لترعى فيها خيل المسلمين ، كما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقتطع ارضا بالربدة وجعلها مرعى لجميع المسلمين ، واعتقد أن هاتين الحادثتين تبينان ان للحاكم حق التأميم والمصادرة متى كانت لصالح المجتمع ، مع تعويض الفرد تعويضا ماليا عما أصابه من ضرر من جراء التأميم فى سبيل المجتمع .

وما دام التأميم فيه نفع للأمة جميعا ، فهو خير ، ولقد وصل الاسلام الى حد ابعد من ذلك ، فلقد اجاز الاسلام انتزاع الملكية لسببين : ان تكون للمنافع العامة أو يكون فيها ضرر للناس ، وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القانون عندما كان لسمرة بن جندب نخل على دار أحد الانصار فكان كلما جاء نخلة يؤذى صاحب الدار فشكاه هذا الى النبى صلى الله عليه وسلم الذى أمر بخلع النخل بمعرفة الانصارى بعد أن عرض على سمرة أن يبيعه أو يهبه أو يخلعه فأبى .

وبجانب النظم السابقة التى وضعها الاسلام فى المساواة الاقتصادية نجده قد وضع نظاما لتلك المساواة لا تقل أهمية عن النظم السابقة ، فقد شرع نظام الميراث الذى يعمل على توزيع الثروات وتقليل الفروق بين الطبقات ، وذلك بتفتيت رؤوس الاموال ورسم لذلك حدودا ونظما يمكن للقارىء الرجوع اليها فى كتب الفقه ، هذا القانون الذى عجزت أحدث القوانين عن أن تأتى بمثله ، بل اضطرت بعض الدول أمام جلال تشريعه أن تأخذ به ، ولكفالة وضمان تنفيذ التشريع جعل نظام الميراث حدا من حدود الله التى أمر بها وأشار اليها فى قوله تعالى :

« تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله وروسوله ويتعدى حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

سورة النساء الآيتان ١٣ ، ١٤

وقد حرم الاسلام الوقف الاهلى ، وذلك منعا لتضخم الثروات ووضعها فى يد أحد الملاك حيث يشذ بعض الناس فيوقف ثروته على أحد أولاده دون الآخرين ، أو لسبب من الاسباب يوقف ماله وثروته على أحد الخدام مع حرمان اصحاب الحق الاصلى فى الميراث ، وبذلك تتكون الثروة كلها فى يد شخص واحد ويعيش الباقون فى فقر مدقع ، فتتولد الضغائن والأحقاد ، وقد تنبهت الحكومة الرشيدة عقب ثورة

سنة ١٩٥٢ الى ذلك فالغت الوقف الاهلى بمقتى القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٥٢ ، وبذلك تكون الثورة قد قضت على عيب ، فطالما تحكم نظار الوقف فى المستحقين وتكون قد سايرت الاسلام وطبقت قوانينه نصا وروحا ، فوضعت الامور فى نصابها ، وتلاشى عيب اجتماعى خطير كان له أثره السىء فى المجتمع .

وان كان الاسلام قد اجاز الوصية ، فقد أوقف جوازها على غير الورثة ، وكان الجواز له هدفه السامى فى حقوق المجتمع ، فكثيرا ما يقوم احد الخدم الاوفياء بخدمة سيده مدة طويلة بأمانة واخلاص ، فيرى سيده أنه من الوفاء أن يوصى له ببعض ماله ، كما أجاز الاسلام الوصية للخير كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات او الانفاق منها على الفقراء ،و فى الواقع تعتبر الوصية من تراث الاسلام الاشتراكى الذى حرمها على الوارث حتى لا يحصل احد الورثة على اكثر من نصيبه مما يجدد عيبا فى المجتمع وهو الحقد والعداء بين افراد الاسرة ، وقد فرق الاسلام ووضع النظم التى تبين الميراث والوصية فى قول الله تعالى عز وجل :

« يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له اخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها او دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما ، ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد . فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين ، وان كان رجل يورث كلالة او امراة وله اخ او اخت فلكل واحد منها السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها او دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » .

الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة النساء

وبجانب تنظيم الاسلام للمجتمع افرادا وجماعات قد نظم ما يجب على الافراد نحو الامة مما ييسر اعمال الحكومة ، ففرض عدة طرق ضرائبية يقوم بتحصيلها بيت المال لينفقه على الخدمات العامة التى تخص المسلمين فى البلاد الاسلامية فكانت هناك عدة ضرائب نذكر منها :

ضريبة الخراج : وتفرض على الارض التى فتحها المسلمون وتركوها فى أيدى أصـــحابها من غير المسلمين بشرط أن يكون الصلح قد تم بين المسلمين واصحاب الارض بدون حرب .

ضريبة الركاز : وتفرض على ما يستخرج من باطن الارض كالمعادن الصلبة والسائلة وقد فرض الاسلام الضريبة بمقدار خمس قيمتها .

ضريبة الصـــيد : وتفرض على الصـــيد البرى والبحرى واللآلىء والأصداف ، والاسفنج والاسماك والحيوان والمرجان والعنبر وغيرها ، وضريبة ذلك خمس قيمة الصيد .

وقد أجاز الاســـلام للامام أو الحاكم فرض ضرائب عنـــد الحاجة والغائها عند انقطاع تلك الحاجة التى أوجبت فرضها .

ونظام الزكاة فى الاسلام يختلف عن نظام الضرائب وهو خـــير النظم الاجتماعية ، فهو ضمان اجتماعى جعل الله به أموال الغنى حقـــا معلوما للسائل والمحروم ، وللزكاة انواع متعددة منها :

زكاة الزروع : وتقدر بقيمة العشر للارض التى تروى من الينابيع أو الانهار دون الحاجة الى استعمال آلات رافعة ونصف العشر للارض التى تحتاج الى جهد أو آلات لرفع ماء الرى .

زكاة الانعام : ويمكن الرجوع الى تفاصيلها فى كتب الفقه الاسلامى.

زكاة الذهب والفضـــة : ويدفع عنهـــا ربع العشر على شرط ان يمضى على ملكيتها عام كامل .

زكاة عروض التجارة : وهذه يمكن الرجوع الى تفاصيلها فى كتب الفقه الاسلامى . وتنفق الزكاة فى ابواب حددها القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى :

« انما الصدقات للفقـــراء والمســـاكين والعـــاملين عليها والمؤلفـــة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . سورة التوبة آية ٦٠ .

وقد فرض الاسلام عدة أبواب مالية اخرى لتدعيم التكافل الاقتصادى بين المجتمع الاسلامى فأوجب زكاة الفطر والضحايا والهـــدايا ، كما أوجب

عدة غرامات مالية على حلف اليمين او فطر رمضان وذلك لتوسيع أبواب الانفاق على الفقراء والمساكين ، وقد بين ذلك فى محكم آياته فقال عز وجل .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا ايمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » سورة المائدة آية ٨٩ .

كما فرض الاسلام غرامة مالية كبيرة على من يظاهر امرأته ويريد الرجوع اليها وذلك واضح كل الوضوح فى قول الله تعالى الذى قصد به الرحمة بعباده الفقراء .

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا ذلك توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب اليم » سورة المجادلة الآيتان ٣ ، ٤ .

وقد رسم الاسلام خطوطا اخرى فى التكافل الاجتماعى فخطط تخطيطا واسعا لتكافل الارحام ، وذلك بقول الله عز وجل :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب »

سورة النساء آية ٣٦

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل : **« ليس منا من بات شبعان وجاره جائع »** ، لخير دليل على التكافل الاجتماعى ، وقد زار رجل ابن عباس ووجده قد ذبح شاة وقام بطهوها ثم أرسل غلامه ببعضها الى جاره اليهودى فدهش الرجل وظهرت الدهشة على وجههفعرف ابن عباس وقال له يارجل : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصينا بالجار حتى ظننت انه سيورثه ، ويقول الله عز وجل :

« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير » سورة الحديد آية ٧ .

هذه هى المساواة الاقتصادية فى الاسلام ، هذه هى الرسالة التى نظمت شئون الدنيا والآخرة منحها الله للانسان ووضعها بين يدى

المسلمين نعمة وفضــلا « **لئلا يكون للنــاس على الله حجة بعد الرســل وكان الله عزيزا حكيما** » سورة النساء آية ١٦٥ .

فقد وضع الاســلام للبشرية نظما وشرع لهــا شرائع تكفل لهـــا السعادة فى الدارين الممر والمقــر ، ووضع للفرد اسسا يسير عليها وبين له طرق الكسب والانفاق والعمل والحياة الاجتماعية ، كما أوقفــه على ما يضر به فحرمه عليه ، وهيأ له اسباب حياته فردا وفى اسرته كما خطط له العلاقة بمجتمعه .

ووضع للمجتمع الاساس السليم الذى ينظم الحقـــوق والواجبات بين الفرد واخيه والحاكم والمحكوم ، وكفل له نظاما لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لكى يكون للمجتمع الاســلامى العزة والســـيادة فلا استغلال لراس المــال فى الاسلام ولا تحكم ولا غش ولا رشـــوة ولا احتكار ولا بغى ، كما أوجب العدل والاحسان والانفاق على الفقــراء وامر بصلة الارحام « ان الله يأمر بالعـــدل والاحسان وايتاء ذى القــربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظم لعلكم تذكرون »

سورة النحل آية ٩٠ .

البـــاب الرابــع
الحــــرية

الفصـــل الأول
الحـــرية فى الأديان

المفروض فى الحــرية أن تكون الاساس لجميع ما رسمته الأديان من عقائد ونظم وتشريعات ، ولكن ما بينــاه فى هذا الكتــاب يدل دلالة قاطعة على انه لم يكن للانســان حرية فى عقيدته أو دينــــه فى الاديان السابقة على الاســلام ، فلم يكن حرا فى التفكير فيما يدين به ، وحتى كان محرما عليه ابداء رأيه فى كنه الاله الذى يعبده ، وكان من الكفــر أن يبحث فى نظم عبادته أو تفصيل ما شرع له .

فكيف يمكننا أن نقول انه كان فى الاديان الســابقة أى نوع من أنواع الحرية حيث انعدمت الحرية الفكرية حينما حرم على الانسان التفــكير فيما يعبــد أو فيما يعلم وما لا يعلم ، وقد انقرضت الحــرية السياسية حين تحكم الكهنة والطغاة الذين كان قولهم من قول الآلهة ، فلا مناقشة لما يقولون ولا نقض لما يحكمون به ، كما كانت الحياة خالية من الحرية المدنية ، لان الانسان كان عبدا لما يمليه عليه القائمون على شئون الدين ، ومن هنا يمكن القول بانعدام الحــرية الدينية ، لان ذلك الانسان نفسه لم يكن عاما فيوليه الدين حقوقا عامة .

ولن يغيب عن البال الحكم على سقراط بشرب السم وموته شـــهيد الحق ، لانه أفشى أسرار الوحدة وخلود الروح ، واعتبر سقراط كافرا ، وسر كفره أنه لم يشترك فى الاسرار أو فى القسم الذى يرتبط به المشتركون فى الاسرار ، وأن موته ليفسر لنــا انعدام الحرية الفردية ، سواء كانت فى الاديان الوضعية أو المبادىء الفلسفية .

والديانة اليهودية التى حرمت على الشــعب اليهــودى مناقشة الاحبار والكتبة والفريسيين ، وأن القــارىء لاسفار بنى اسرائيل لن يرى ثورة من الشعب على أنبيائهم وكهنتهم الا فى ســـبيل المأكل والمشرب أو ما لاقوه فى ســبيل الهجرة من المشـــقة ، كانوا كالسائمة لا يفعلون الا ما يؤمرون به ، عاشوا حياتهم لا يطلبون الا بما تنادى به البطــون مدعين أنهم متمسكين بحرفية الاسفار .

ولكن اليهودية أطلقت الحرية فى ناحية واحدة هى التفكير فى استغلال كل الطاقات لاستعباد الشعوب وتقويض مقوماتها ، ولكن ذلك لا يخرج

عن الحدود التى رسمتها الصهيونية العالمية ، ومن خرج على تعاليم الصهيونية فهو كافر ومستحق النقمة واللعنة والطرد من الوسط اليهودى .

وجاءت المسيحية عقب اليهودية تدعو للحرية الفكرية ، حيث وجهت الانظار الى السماء بعد أن هجرتها ودعت الى الاتجاه الى الله وتحرير العقول من اغلال المادة بعد أن تجردت تلك العقول وخويت النفوس من الروحانية ، وتحولت الى مادة جامدة لا روح فيها .

وبعد ان رفع المسيح عليه السلام ، اختل نظام الدعوة التى جاء بها فاستجدت الافكار وحرفت دعوة المسيح وشوهت المسيحية فكثرت فيها الآراء الفلسفية وامسك الكهنة بزمام الامور وخرجت العقائد الكنيسية فاحتلت المراكز ، واستولت الكنيسة على مقاليد السلطة واستغلت الشعب المسيحى اسوا استغلال مما ادى الى وجود طوائف خارجة على الكنيسة .

ولما شعرت الكنيسة بوجود المفكرين الذين خرجوا عما رسمته من قواعد واصول رات فى ذلك ما يهدد سلطانها وضعف مركزها امام تيار الفكر الحديث والعلم الآخذ فى النماء فانطلقت تقاوم وتجاهد تلك الأفكار وذلك العلم ، فحاولت تكميم الافواه البريئة وتعطيل الافكار الحرة التى تناقض النظريات البالية العتيقة .

ومن هنا كان العداء الشنيع بين الكنيسة وحرية الفكر منذ ذلك التاريخ ، فاصطدمت نظرياتها عن الارض والافلاك والمواد بنظريات العلم القائمة التى تناقض النظريات البالية العتيقة .

ولما كانت نظريات العلم يؤيدها التجربة والواقع ، وفتوحات العلم لا تدع مجالا للشك فى عظمة هذه الاداة المستجدة ، فقد نشأت أجيال من العلماء والمفكرين تكره الكنيسة وتحتقرها ، وأصبح هؤلاء العلماء والمفكرون يكونون فى نفوسهم العداوة والاشمئزاز للدين ورجاله .

ولذلك كانت هناك جفوة بين الدين والعلم وبين الكنيسة والفكر فى حياة الاوروبيين . وأما فى الشرق فلم تكن هناك عداوة بين المفكرين ورجال الدين ، وذلك لان رجال الشرق عاشوا مسلمين القياد لرجال الدين الذين تركوا لهم الحبل على الغارب الا فيما يمس سلطان الكنيسة وقداستها مما ولد شبه جمود فكرى فى الشرق . أما الاسلام فقد قدس الحريات واعتبرها الدعامة الاولى فى تصحيح العقائد وتطبيق التشريع ، وكان حريصا على تطبيق الحرية فى شتى شئون الحياة يمارسها الفرد سواء كانت حرية فكرية أو سياسية أو مدنية أو دينية ، وبذلك يصبح المسلم عضوا ناضجا فى المجتمع يفيد ويستفيد وبه يكتمل نظام المجتمع الاسلامى . ؟ ؟

الفصــــــل الثــــانى

حـــرية الفـــكر فى الاســــــلام

حرية الفكر فى الاسلام تنقسم الى قسمين : الاول حـــــرية الراى ، والثانى حرية التفكير العلمى ، فقد كفل الاســـــلام للمسلم الحــرية الفكرية بقسميها ، وقد اعطاه بل أوجب عليه أن يبدى رأيه بأى وســـيلة يشاء ، وان يجهر بما يرى فلا يخاف فى الحق لومة لائم ، وتوعد من يكتم حقـــا فى صدره ، أو يحبس رايا فيه نفع للأمة فى مجمـــوعها العـــذاب الاليم يوم القيامة ، فقد وصف الله الامة الاسلامية بقوله :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » سورة آل عمران آية ١١٠ .

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شـــهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » سورة البقرة آية ١٤٣ .

فقد أعطى الاسلام المسلم الحق أن يعتنق ما يراه بصـــدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والانسان ، واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات ، ولا يختلف موقف الاســـــلام فى نوع من العلوم دون نوع آخر ، فلم يحاول أن يفرض على العقـــول أى نظرية علمية معينة سواء كانت فى علم الفلك أو الحيـــوان أو النبـــات أو الانسان ، ولم يتعرض لتفاصيل هذه الشئون بل رسم الخطوط العريضـــة ثم استحث العقول على النظر فى الظواهر والخفايا وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون كلها واستنباط قوانينها العامة ، وأثر فى نفوسهم حب الاستطلاع حيـــال الامور التى لا تثير الانتباه .

والاسلام لا يعادى العلم ولا يجافى العلماء ، بل يجعل العلم فريضة مقدسة داخلة فى العبادات والشعائر الدينية حيث يقـــول رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، كما يقـــول صلوات الله عليه وســــلامه فى حق الرحلة فى طلب العلم : « ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقـــا الى الجنة » ويقـــــول الله تبارك وتعالى فى الحث على طلب العلم :

« فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » سورة النحل آية ٤٣ .

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » سورة التوبة آية ١٢٢ .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

والله سبحانه وتعالى ورسوله يحثان على طلب العلم والتعلم ، فقد أشاد الله بالعلم وذلك عندما انزل أول تنزيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث علمه القراءة ، وذلك فى قوله تعالى :

« آقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »

سورة العلق الآيات ١ ، ٥

واشار سبحانه وتعالى الى أدوات القراءة والكتابة ، فأقسم بالقلم وما يسطر القلم ، والرق المنشور ، أى الصفحات المكتوبة ، والكتاب المسطور اى الكتاب المكتوب الذى يقرا وذلك فى قول الله تبارك وتعالى :

« ن ، والقلم وما يسطرون » سورة القلم الآيتان ١ ، ٢ .

« والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور »

سورة الطور الآيات ١ — ٣

والعالم والمتعلم لهما أجر عند الله وثواب ، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « العالم والمتعلم شريكان فى الاجر ، ولا خير فى سائر الناس بعد » وقد امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والتعلم فى حديثه « اغد عالما متعلما ولا تغد بين ذلك » ، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس خطيبا يعاتبهم على عدم التعليم والتعلم ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : « ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا ينهونهم ، وما بال اقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقون ولا يتمظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون او لأعاجلنهم العقوبة » .

ولم يعرف التاريخ الاسلامى تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر او رجالا لعلم ، فقد اشاد الله بالعلماء وربط الاسلام التقوى بالعلم وجعل العلم سبيلا الى معرفة الله وخشيته ، فقد قال الله تعالى :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

« شهد الله ان لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم »

سورة آل عمران آية ١٨

« **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات** » سورة المجادلة آية ١١

ويفضل الله العلماء على الجهال بل جعل فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، فيقول عز وجل :

« **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب** » كما يقول عليه أفضل الصلاة والسلام : » **قليل العلم خير من كثير العبادة** « ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « **يبعث الله العالم والعابد ، فيقال للعابد ادخل الجنة ، ويقال للعالم اشفع للناس كما احسنت ادبهم** » .

وكما سبق القول لنا أن الاسلام لم يبن شرائعه على خوارق العادات وغامض المعجزات كما أنه لم يقم على الغيبيات ، انما قام على التأمل والمشاهدة والنظر فى آيات الكون وأسباب الحياة .

وقد أمر القرآن الكريم أن يتأمل المسلمون فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار وخلق الانسان وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض ، وكثير من الآيات فى كتاب الله عز وجل تدعو الى التأمل فى تكاثر النبات وتناسل الحيوان ، وطفو بعض الاجسام على الماء وغير ذلك من مسائل العلوم والفنون ويوحى القرآن الى الانسان أن كل تلك الفنون والمعارف جديرة بالتطلع والتفكير مثل قوله تعالى :

« **افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟ والى السماء كيف رفعت** » ؟ **والى الجبال كيف نصبت ؟ والى الارض كيف سطحت ؟**

سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠

« **ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ، ان يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** »

سورة الشورى آية ٣٣

« **أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء** »

« **وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل واعنابا وفجرنا فيها من العيون** »

سورة يس الآيتان ٣٣ ، ٣٤

ثم ترى القرآن فى عرضه الآيات التى تجل عن الحصر يجمل خاتمتها دائما بقوله تعالى : « **ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار** » ..

« ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » ، **« ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »** ، **« انما يتذكر اولوا الالباب »** .

وهكذا نرى الآيات منبهة الابصار شاحذة السمع ، آمرة العقل بالتدبر والالباب بالتفهم ، موقظة النعسان ، كلها دعوة للتفكر والتأمل والبحث والتنقيب والاستطلاع . ففى جميع الآيات السابقة وغيرها من كتاب الله التى لم نستطع حصرها ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يمكن أن يشتم الانسان ان الاسلام فرض علما معينا أو طريقة معينة فى البحث ، بل ترك الهدف والغاية والوسيلة للانسان فى حدود ما رسمه من خطوط عريضة ، وترك لكل فرد بعد ذلك كامل الحرية فى تقرير ما يراه .

وقد كفل الاسلام للانسان حرية الخطابة وحرية الصحافة وحرية التفكير والبحث العلمى ، وبذلك كان المسلمون فى أول عهد الاسلام والعصور التالية له سادة الارض وعلماءها ، ففتحوها وعمروها بعلمهم وبحوثهم وفنهم ، والاندلس بفنها العربى لتشهد بذلك ، وكفى أن يؤمر المسلم المسلم بأن يدعو الله حسب أمره فى كتابه العزيز **« وقل رب زدنى علما »** سورة طه آية ١١٤ .

الفصـــل الثــالث

الحــرية الســـياسية فى الاســـلام

الحرية السياسية هى مزاولة كل فرد بالغ رشيد عاقل فى اختيار السلطة التنفيذية القائمة على تنفيذ التشريع وتطبيق القوانين بما فيها رئيس الدولة ، وذلك عن طريق الممثلين عن الامة انتخابا من بين افراد الامة ، بحيث تحوط الانتخاب ضمانات الســلامة فى اجرائه ، وطمأنينة الناخب لطريقة ابداء رايه حرا دون تأثيرات خارجة عن ارادته .

والحرية السياسية فى نظـــر الاســـلام جـــزء أســـاسى من الحرية الانسانية ، حيث تتضمن حرية الفرد فى اختيـــار رئيس الدولة الذى كان يطلق عليه اسم الخليفة أو الامام ، وحرية ابداء الرأى الشـــورى ، لرئيس الدولة ، وحرية نقد الحاكم ، وحرية التظلم الى رئيس الدولة ، وحرية عدم طاعة الخليفة اذا خرج عن حدود الله وحاد عن الحق .

واختيار الحــاكم فى الاســـلام يتبع فيه نظـــام جليل ، هو اشتراك المسلمين جميعا فى اختيـــاره ، وذلك أن أهل الرأى فى الامة هم الذين يتولون اختياره ، فاذا اتفق كلهم أو اتفقت غالبيتهم على أحد الاشخاص بايعوه ، ثم يتبعهم باقى الشعب فى مبايعة الخليفة ، وبذلك يكون الاسلام قد قرر أن اختيار الخليفة موكول الى المسلمين ، وأن الخلافة الصحيحة هى ما كانت نتيجة بيعة حرة لا ضغط فيها ولا اكراه ، اشترك فيها جميع المسلمين أو الغالبية الكبرى .

ومن هنا يمكن الوقوف على حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى انه لم يعين الخليفـــة الذى يخلفه ، وذلك حرصـــا من النبى صلى الله عليه وسلم من أن يستغل الخليفة بعده سلطته الدينية فى تعيين الرسول له ، اذ أن الاســـلام لا يعرف طائفة دينية مثل طائفة الاكليروس فى الكنيسة المسيحية ، وليس الحكم فى الاســـلام أداة لقيام هيئة دينية معينـــة ، ولكن الاســـلام هو تنفيذ الشريعة الاســـلامية ، والحكم فى الاســـلام لا يحتاج الى اكثر من تنفيذ تلك الشريعة .

والحاكم فى الاســـلام مطالب بالعـــدل بين النـــاس ، فلا يحـــابى ولا يعادى الا بقدر ما يتطلب منه تنفيذ تلك الشريعة ، والا يكون عداؤه الا فى ســـبيل الله ، وان يســـاوى فى وجهـــه وفى مجلسه حتى لا يطمع شريف فى محاباته ، ولا ييأس ضعيف من عدله ، ولا يخـــاف انســـان حيفه ، وهذا لمـــا أمر الله به الحكام فى قوله تعالى :

« **ان الله يامر بالعــدل والاحسان** » سورة النحل آية ٩٠ .

« **واذا حكمتم بين النـــــاس ان تحكموا بالعــدل** »

سورة النساء آية ٥٨

« **واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** » سورة الانعام آية ١٥٢ .

« **ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى** »

سورة المائدة آية ٨

والحاكم كما أمر من الله بالعدل والتقوى أمر من رســـول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، حيث بين الرسول أن أحب النـــاس الى الله واقربهم منه مجلسا يوم القيامة الامام الذى يعدل فى حكمه ، طبقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان أحب الناس الى الله يوم القيامة واقربهم منه مجلسا امام عادل ، وان أبغض الناس الى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا امام جائر » .

ولم يكتف الاســـلام بذلك بل أوجب على الحاكم والسلطة التنفيذية الا يبرم امرا من امور الدولة الخطيرة ، التى تمس الكيان العــام الا اذا كانت هنـــاك المشـــورة بين الحاكم والمحكوم ، على أن تكون الشورى قائمة على احترام الحاكم لراى المحكوم ، وذلك بامر الله عز وجل لنبيــه فى قوله تعالى :

« **وشاورهم فى الامر** » سورة آل عمران آية ١٥٩ .

« **وامرهم شورى بينهم** » سورة الشورى آية ٣٨ .

وذلك لان الشورى أصل من أصول الاســـلام أوجبتها الشريعة الاسلامية لتحدد اشتراك الحاكم والمحكوم فى الحكم ، ولتجعل السلطة التنفيذية مسئولة أمام المسلمين جميعا .

وقد جعل الاســـلام السلطة التنفيـــذية محاسبة ومراقبة عن كل ما تقوم به فى حدود وظائفها العامة أمام المسلمين جميعا ، ويمكن الرجوع الى قول ابى بكر الصـــديق رضى الله عنه فى خطبتـــه بعـــد أن بايعه المسلمون على الخـــلافة : « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رايتمونى على حق فأعينونى ، وان رايتمونى على باطل فســـددونى ، اطيعـــونى ما اطعت الله فيـــكم ، فان عصيته فلا طـــاعة لى عليكم » وفى خطبة اخرى له يقول « انما انا متبع ولست بمبتدع ، فان استقمت فتابعونى وان زغت فقومونى » ، ويقول عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه « الا ان رايتم فى اعوجاجا فقومونى » .

كما أوجب الاسلام على الحاكم أن يكون متواضعا لين الجانب ، يبتسم فى وجه الجميع ويبش لهم ، وذلك تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما دخل عليه أعرابى فى المسجد يقود جمله ، فبال الجمل وغضب لذلك بعض الصحابة واراد ان ينهر الاعرابى فمنعه النبى صلى الله عليه وسلم وقام من مجلسه وأخذ قربة من الماء وطهر مكان البول ، فكان لتواضع النبى أثر فى اعتناق الرجل للاسلام ، مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتجه الى الصحابة قائلا : **« لو نهرتم هذا الرجل لخرج كافرا »** ، وصدق الله العظيم القائل فى حق نبيه :

«فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر »

سورة آل عمران آية ١٥٩

وقد أجاز الاسلام للفرد حرية نقد الحاكم فى حدود الادب الاسلامى ، فقد جعلت تلك الحدود لكل مواطن ان يبدى رايه فى تصرفات الحاكم ، ولذلك عندما قال عمر بن الخطاب : « ان رأيتم فى اعوجاجا فقومونى » قام اليه رجل فقال : « ان رأينا فيك اعوجاجا قومناك بالسيف » ، فاغتبط عمر بما قاله الرجل وشكر الله سبحانه وتعالى ان بلغ المسلمون هذا الحد من اليقظة والوعى ، وانى لأذكر ما روى من أنه كانت توزع قطع من الاقمشة من بيت المال وضمنا خص امير المؤمنين قطعة ، ولما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب طويل القامة ، والقطعة لا تكفى له ثوبا . اكملها من قطعة عبد الله ابنه ، وفى يوم كان يخطب الناس ، فقام اليه رجل وطلب منه أن يبين كيف حصل على ما يكمل ثوبه ، وقال له اكلت للناس بكيل ولنفسك بكيل آخر ؟ فأشار عمر الى عبد الله ابنه ، الذى وقف وقال : لقد أعطيت ما خصنى لأبى ليكمل ثوبه ، ثم اتجه عمر الى الناس قائلا : « الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يسأل الحاكم ويقول له من اين لك هذا الشىء ؟ » ، ونحن بصدد عمر لا ننسى يوم أن اعترف أن راى امراة اصوب من رأيه فقال : « اخطأ عمر واصابت امراة » ، ونزل عمر على راى المراة لصوابه ولم تأخذه عزة الحكم ولم يغره السلطان .

ويقول عثمان بن عفان رضى الله عنه حينما انتقده الناس واخذوا عليه المآخذ « انى اتوب وانزع ، ولا اعود لشىء عابه المسلمون ، فاذا نزلت من منبرى فليأتنى اشرافكم فليرونى رايهم ، فوالله لأن ردنى الحق عبدا لأذلن ذل العبيد » .

ولتوفر هذه الصفات فى الحاكم ، فقد أوجب الاسلام على المسلمين أن يطيعوا هؤلاء الحكام ، وأن ينفذوا أوامرهم ، وجل الطاعة

لولى الامر طـــاعة مستمدة من طـــاعة الله ورســـوله ، وذلك لقول الله عز وجل :

« ياايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم »

سورة النساء آية ٥٩

ولن يطاع الحـــاكم فى الاســـلام لذاته وانما يطـــاع لقيـــامه على شريعة الله ورسوله ، وفى تنفيذه لهذه الشريعة دون ســـواه يستمد حق الطاعة ، فاذا انحرف عنها سقطت طاعته ولم يجب لأمره النفاذ ، ويقول صلى الله عليه وســـلم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، الا أن يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « اسمعوا واطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » .

وقد منح الاســـلام الفرد حرية التظلم الى رئيس الدولة من ظلم الولاة او المبعـــوثين ، وقد كان عمر يرسل الى ولاته ويجتمع بهم فى موسم الحج ، وينادى فى الناس : من كانت له مظلمة على احد الولاة فليتقـــدم للشكوى منه . وكان عمر يستمع الى الشكاوى ويقوم بتحقيقها بنفســـه ، وذلك لم يكن مبتدعا من عمر حيث كان يقلد رسول الله صلى الله عليـــه وسلم وسلفه أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد كان عمـــر أول من انشأ ديوان المظالم ونظم القضاء فى الاسلام .

وان تاريخ الاســـلام لحافل بالامجاد التى توضح ديمقراطية الاسلام فى منحه الحريات بجميع انواعها ، وان ديمقـــراطية الاســـلام للتتبلور فيما حدث حين استشار النبى صلى الله عليه وسلم اصحابه فى شأن بعض الاسرى ، ليقتلون ام يطلق سراحهم فى مقابل فدية يدفعونها ؟ فاشـــار معظم الصحابة بقبـــول الفدية ، واشار عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ بقتلهم ، فنزل عليه الصلاة والسلام على رأى الاغلبية ، حتى جاء القرآن الكريم مؤيدا رأى عمر وسعد ، فقال الله تعالى :

« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » سورة الانفال آية ٦٧ .

فنزل الرسول صلى الله عليه وسلم على رأى القرآن المؤيد لرأى عمر وسعد بن معاذ .

والاسلام يطالب الراعى والرعية على أن يعمـــلوا على ارســـاء قواعد الحرية السياسية بحيث تحوط تلك القواعد الدعائم القوية لتلك الحرية المطلقة دون قيد ، فيكون الحاكم راعيـــا فى رعيته ومسئولا عنها ،

والرعية راعيـة الرقابة المحكمة على الحاكم والسلطة التنفيـذية حتى لا يخرج الحـاكم عن الحدود المرسومة نتيجة تغافل وتهـاون الرعية ، لأن المسلمين امام الله مسـئولون عن نشر ورفع راية الدعوة الاسلامية ، كل فى حدود استطاعته وامكانياته على هدى الكتـاب والسنة ، وذلك لقول الله تبارك وتعالى :

« قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصـيرة انا ومن اتبعنى »

سورة يوسف آية ١٠٨

الفصـــل الرابع

الحـــرية المدنيـــة فى الاســـلام

الحرية المدنية معناها اعطاء الفرد الرشيد البالغ العاقل الحق فى تحمل الالتزامات العـــامة والخاصة فى هذه الحياة ، فالحرية المدنية تعنى اعطاء ذلك الحق فى أن يختار نوع العمل الذى يزاوله حسب طـــاقته الجسمانية والعقلية والتكسب من شتى طرق الكسب المشروعة ، واختيـــار الزوجة التى تناسبه واختيار المرأة الرشيدة العاقلة الزوج الذى يناسبها وترتضيه أن يكون زوجا لها ، وحرية الاقامة فى أى بلد يشـــاء والهجرة والرحيـــل من أى مكان الى مكان آخر ، ونوع العلوم والمعـــارف التى يدرسها ، وحرية الفرد فى حق التملك والبيـــع والشراء والهبـــة والوصية والرهن وغير ذلك .

فقد أعطى الاســـلام الفرد حق اختيار العمـــل الذى يتناسب مع امكانياته ، كما أعطاه حق التكسب من أى نوع من الاعمـــال المشروعة ، دوون أن يفرض عليه نوعا من العمـــل ، أو يكلفـــه ما لا طاقة له به ، وذلك لقول الله سبحانه وتعالى :

« لا يكلف الله نفســـا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »

سورة البقرة آية ١٨٦

ويقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « لا تكلفـــوهم مالا يطيقون ، فاذا كلفتموهم فأعينوهم » ، كما طالب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يساعد العمال وتهيـــأ لهم أسباب تمكينهم من أداء العمل واتقانه ، وذلك لقوله فى الشطر الاخير من الحـــديث السابق « فاذا كلفتموهم فأعينوهم » .

وقد حفز الاســـلام المسلمين على العمل بأنه زينة لهم وجعله شرفا كبيرا ، وجعل العامل مسئولا عن عمله وصاحب العمل مسئولا عن راحة العامل وتأمين نفقاته ، حيث يقول الله عز وجل :

« ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمـــل صالحا »

سورة فصلت آية ٣٤

« لياكلوا من ثمـــره وما عملته ايديهم افلا يشكرون »

سورة يس آية ٣٥

« **ولتسالن عما كنتم تعملون** » سورة النحل آية ٩٣ .

« **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتهـــا نوف اليهم اعمالهم فيهـــا وهم فيها لا يبخسون** » سورة هود آية ١٥ .

« **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لا يظلمون** »

سورة الاحقاف آية ١٩

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات لهم اجر غير ممنون** »

سورة فصلت آية ٨

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنـــات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** » سورة الكهف آية ١٠٨ .

« **فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى** »

سورة آل عمران آية ١٩٥

والسنة الكريمة تطابق القرآن الكريم فى هذا الشأن ، فالاحاديث النبوية التى تجل عن الحصر كلهـــا تحفـــز على العمل وتدعو اليه وتحيط بالعمل والعامل نفس السياج الذى أحاطهما به القرآن ، فيقول رسول الله صلى الله عليـــــه وسلم فى شرف الكسب « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده » ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجـــوب اجادة العمل : « ان الله يحب من العامل اذا عمل عملا أن يحســـــنه » وفى رواية اخرى « أن يتقنـــه » ، وفى الدفع الى العمل وتزيينه وتحسينه فى نظر العـــامل : « لا يأخذ احدكم حبــــله فيأتى بحـــزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير من أن يســـال الناس اعطوه أو منعوه » ، ويقـــول عليه الصـــلاة والسلام فى هذا المعنى « اليد العليا خير من اليد السفلى » ويقول عليه اذكى الســـلام فى شـــأن وجوب راحة العامل « ان لبدنك عليك حقا وان لزوجك عليك حقا وان لربك عليك حقا فأد كلا حقه » .

والاسلام يهتم بموظف الدولة والعامل فيها ويوليه رعاية خاصـــة تجعل له الاستقرار والامان اللذين يمكنانه من اداء عمله فى كفـــاية ونزاهة ، وذلك ان جعل من نفقات الزكاة جزءا للعاملين عليها ، لقول الله عز وجل :

« **والعاملين عليها وفى الرقاب** »

وقد اولى صلى الله عليه وســـلم : موظف الدولة تلك الرعاية ، فاوجب ان يكـــون للعامل الحق من ناتج عمله ، وبهذا التكافل يمكن ان

تبنى الدولة بنـــاء سليما فقد قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : من ولى لنا عملا وليس له بيت فليتخذ بيتـــا ، او ليس له زوجة فليتزوج ، او ليس له دابة فليتخذ له دابة » .

كما منح الاســلام الفـــرد حق اختيار الزوجة الصالحة التى تناسبه ويتكافا معه ، والتكافؤ شرط من شروط الاســلام التى اشترطها وجعلها ركنا وشرطاً لا يكون عقد الزواج بدونهما صحيحا ، وبذلك يكون الاسلام قد وهب الفرد ما لم يعطه دين آخر أو اى قانون وضـــعى ، وهذا العطاء وهذه المنحة تتجلى فى قول الله عز وجل :

« والمحصنات من النساء الا ملكت أيمانكم كتـــاب الله عليكم واحل لكم ما وراء ذلكم ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجـــورهن فريضـــة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما » سورة النساء آية ٢٤ .

كما قرر الاســلام حق المراة الرشــيدة العاقلة فى اختيار زوجها المتكافىء معها ، وذلك باختيـــارها ورضـــاها دوون اكراه ، وذلك لقـــول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأيم احق بنفسها من وليها » .

وقد قرر الاسلام منح الفرد حق التنقـــل من بلد الى بلد والاقامة فى اى مكان يشاء من ارض لله ، دون اكراه ، وذلك لقول الله عز وجل : **« وامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليـــه النشـــــور »**

سورة الملك آية ١٥

كما اوجب على الذين لا يجدون فى بلادهم وسيلة من وســـــائل العيش سواء كانوا مستضعفين من الحكام او ضـــاقت بهم ســـبل الرزق أن يهاجروا الى غيرها من أرض الله الواسعة ، وقد أطلق الله على الذين استكانوا للكســـل أو الاستضعاف والتكاسل انهم ظالمو انفسهم فى قوله عز وجل :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفســـــهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا : الم تكن ارض الله واســـــعة فتهاجروا فيها ؟ فاولئك مأواهم جهنم وســـاءت مصـــيرا »

سورة النساء آية ٩٧

وقد قرر الاســـلام حرية الفرد فى اعتنـــاق ما شـــاء من المبادىء ، ودراسة ما يشاء من العلوم والفنون ، بل فرض عليهم البحث والتحرى والتحقيق ، وذلك لقول رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم الذى يبين وجوب طلب العلم من المهد الى اللحد حيث قال : « يظل العبد يطلق

عليه عالما حتى اذا ظن أنه علم فقد جهل » ولكن لم يفرض الاسلام على الفرد علما معينا بل تركه لموهبته وقدرته على الفهم والبحث وقد بينا ذلك فى فصل « الحرية الفكرية » من هذا الكتاب .

ويقرر الاسلام لكل انسان حق التملك ، وهذا الحق نتيجة تسخير كل ما فى الكون من اموال ومنافع وأرض وبحار وانهار لهذا الانسان ، وذلك يتوارد مضمونه فى آيات القرآن الكريم التى نتخذ منها على سبيل المثال آية ولله المثل الاعلى .

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » سورة الجاثية الآيتان ١٢ ، ١٣ .

والملكية مصونة يصونها القانون ويحرسها اذا كانت الملكية بالطريق المشروع ، كما اوجب الاسلام على المجتمع ان يحمى هذه الملكية بأن أمر بالعدل على الانفاق وعدم التبذير لقوله عز وجل « ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل » سورة البقرة آية ١٨٨ .

كما قرر الاسلام حق الفرد فى البيع والشراء والرهن والوصية ، وقد بينا ذلك فى المساواة الانسانية والاقتصادية فى فصول سابقة من هذا الكتاب ، ولما كان الاسلام احكامه متصلة لا يمكن الفصل بينها ، اضطررنا الى تكرار الآيات كادلة لبعض نواحى وابواب وفصول هذا الكتاب ، والله الموفق .

الفصـــــل الخامس

الحـــرية الدينيـــة فى الاســـلام

الاســـلام دين الخلود والنظـــام العـــالمى الذى جاء لينظم مســـتقبل البشرية ، وهذا النظام مستمد من أن محمدا رسول الله الى الناس كافة ، وانه خاتم النبيين ، وأن دينه هو الدين القويم الذى لا يأتيـــه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

« **وما ارسلناك الا كافة للناس** » . سورة سبأ آية ٢٨ .

« **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » . سورة الانبياء آية ١٠٧ .

« **ما كان محمد ابا احـــد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما** » سورة الاحزاب آية ٤٠ .

لذا كانت سياسة الاســـلام السمحة النبيلة أساسا لما سار عليه حيال أنواع الحرية وتتبلور الســـياسة وتتجلى تلك الاسس فى الحـــرية الدينية أو ما يسمى بالتعايش الدينى فى الاسلام ، حيث قرر مبـــادىء هى أرفع ما وصل اليه التشريع الحديث بصدد حرية العقيدة والدين .

احد هذه المبادىء :

« **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** »سورة البقرة آية ٢٥٦ .

فلم يفرض الاســـلام على غير المسلمين اعتنـــاقه او الايمان به ، بل ترك لهم اقصى درجات الحرية والحمـــاية فى مزاولة عباداتهم واقامة شعائرهم الدينيـــة وفرائضهم التعبدية ، وبلغ من دقة احساسه لهـــذه الحرية ان فرض الزكاة على المسلمين واوجب ما يقابلها من الجزية على غيرهم ، وعدم فرض الزكاة على الذميين واهل الكتـــاب يرجع الى ان الزكاة شـــعيرة تعبدية وركن من اركان الاســـلام ، ولذلك لم يشأ ان يفرض اى نوع من انواع العبـــادة الاســـلامية على غير المسلمين ، والتزم بحماية دافعى الجزية وتأمينهم فى عقائدهم ومعاشهم .

واذ يقول مفتر أن الاســـلام فرض على النـــاس بالسيف ، فلنرد عليه : أن الاسلام لم يفرض اعتناق مبادئه وتعاليمه بالسيف ، بل ســـار المسلمون فى عرض دينهم على أســـاس من الحـــرية ، واذا كان الاسلام

قد أمر بقتال المشركين ، فانما هى الحـــرب لرد العـــــدوان حيث قال الله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . سورة البقرة آية ١٩٠ .

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخــرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقــولوا ربنـــا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقـــوى عزيز » .

سورة الحج الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

والحرب فى حالة نكث العهـــد والكيد للدين الاســـلامى ، والخروج عن العرف والتقليد الدوليين فى حماية الارواح والأنفس .

« وان نكثوا ايمانهم من بعـــد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقـــاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون » . سورة التوبة آية ١٢ .

والحرب حيث تستوجب الاعتبارات التى تتعلق بســـــلامة كيان الدولة والقضاء على الفتنة ، فقال الله تعالى :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهـــوا فان الله بما يعملون بصير » . سورة الانفال آية ٣٩ .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » . سورة البقرة آية ١٩٣ .

ومع ذلك فقد كان المسلمون يبيحون لاهل البلد الذى يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع اداء الجزية والطـــاعة للحكومة الاســـلامية القائمة ، ودفع الجزية من غير المسلمين ودفع الزكاة من المسلمين انما هو مشاركة من الطرفين لحماية الدولة وبنائها من مســـئولية المسلمين عن حمـــاية الذميين ، ولقد بلغت الحماية الى حد بعيد جدا وهو منـــاصرة هؤلاء الذميين ضد اعدائهم ، وقد بلغ الاسلام فى الوفاء بعهوده لغير المسلمين الى حد عدم نصرة المسلمين أنفسهم على المعاهدين .

« وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » سورة الانفال آية ٧٢ .

وقد أوجب الاســـلام على المسلمين احترام عقائد غيرهم وشعائرهم ومعابدهم وقد رسم ذلك ووضحه قول عمر بن الخطاب فى رسالته لاهل بيت المقدس .. « هذا ما اعطى عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من

الامان : اعطاهم أمانا لانفســهم ولكنائسهم وصلبانهم ، لا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم » .

وقد كان الذميون فى عهــود الاســلام المتوالية يعاملون معــاملة المسلمين فى جميع وشتى أنواع المعاملة فى الحياة ، وذلك لقول عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ويذكر التاريخ ان عمر كان يتجول فى انحــاء المدينة ليتحسس احوال الناس ، فرأى يهوديا مسنا يتسول ويسال الناس الحافا ، فناداه وسأله ادفعت الجزية ابان قوتك وشبابك ؟ فأجاب نعم ، وهنا قال عمر : « ما دمت قد دفعت الجزية صــغيرا وجب على بيت مال المسلمين ان يرعاك كبيرا » ، وفى رواية اخرى « دفعت الجــزية قويا فوجب على بيت مال المسلمين ان يرعاك ضعيفا » وصرف له من بيت مال المسلمين ما يكفيــه ويكفى عياله .

ومبدأ آخر شرعه الاســلام فى شأن غير المسلمين ، هو حــرية البحث والمناقشــة فى الشئون الدينية ، فأمر المسلمين ان يلتزموا طرق الاقناع والمنطق السليم مع أهل الاديان الاخرى ، وقرع الحجــة بالحجة ، والبينة بالبينة ، وذلك لما امر الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى اتبــاع طريق الدعوة الى الله بالحسنى وقوة الحجــة والبرهان بدون اكراه ، حيث قال الله تعالى .

« قل : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا اربابا من دون الله فان تولو فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » سورة آل عمران آية ٦٤ .

وفى هذا يقول الله تعالى مخاطبا رســوله عليه الصلاة والسلام :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهــم بالتى هى احسن » سورة النحل آية ١٢٥ .

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا المؤمنين .

« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » سورة العنكبوت آية ٤٦ .

وفى الحجة والبرهان ومطــالبة أهل الكتــاب والذميين من اليهود والنصارى يأمر الله نبيه بأن يخاطبهم ويطالبهم .

« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

« هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتونى بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين » .

فان أصروا على معتقداتهم . فقد بين الله لرســوله الطريق بقوله سبحانه وتعالى :

« فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين اوتوا الكتاب ، والاميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وأن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » سورة آل عمران آية ٢٠ .

ومبدأ ثالث ، قرره الاســلام ، هو أن الايمان لا يكون صحيحا الا اذا كان منبعه من القلب عن يقين واقناع ، لا عن تقليد واتباع ، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الادلة العقلية والمنطق السليم والدعوة الى النظر والتفكير ، ورفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل ، لان الاسلام لا يقبل أن يمن الذين آمنوا به على الله ايمانهم .

« قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » سورة الحجرات آية ١٧ .

والاســلام اذ يدع للآخرين حريتهم فى هذه الحدود ، يتأثر بروحه الانسانية العامة ، وهو على ثقــة تامة بانهم متى اتيح لهم ان ينظروا فى الاسلام نظرة تدبر وامعان ، دون حيلولة من القوة المادية او الجهالة الفكرية ، فانهم بفطرتهم يفيئون الى الاســلام الذى يحقق ما هدفت اليه جميع الديانات من قبله من مســاواة ، وتكامل تام ، وتكافل لا يعدوه تكافل ، ووحدة انسانية ، وحرية لا نهائية .

خاتمـــــة

الكفــة الراجحــة

يولد الانسان على دين آبائه ، ويشب على مبـــادئهم ، ويتربى جسمانيا وعقليا متشبعا بآرائهم ، مؤتمرا بأمر دينهم ، وربما فاق قومه تطرفا وزادهم تمســكا بدينه ، حتى اذا شب عن الطوق ، وفى ســاعة منساعاتالصفاء الروحى والحيــاد العقلى ، تامل فيما يدين به ، وناقش ما يلقى عليه من تعاليم ، فتساوره بعض الشــكوك ، ومن هنــا تكون الشرارة الاولى التى تنطلق فتولد عنــده الصراع الفكرى الذى يعتبر بداية التحرر مما قد يسميه فى ذلك الوقت متناقضــات ، أو على ألاقل ما يظنه متناقضــات : ثم تتطور تلك التى ظنها الى مســائل تعتبر فى نظره شــائكة تتطلب الحل فيضــطر امامها الى البحث والتنقيب عن الحقــائق .

وفى غمرة البحث والتنقيب قد يطرق سمع ذلك الانسان نداء يدعوه الى اعتناق مبدأ من المبادىء ، أو دين من الاديان ، وبعد نظرة خاطفة الى مظهر هذا الدين أو ذاك المبدأ يرفض هذا المبدأ وذلك الدين وينفر ، بل يعرض ويفر منهما ، ويكون الرفض والفرار وسبب النفور والاعراض نتيجة تنسم رائحــة التكليف المبنى على الارغام والاكراه على اعتنــاق هــذا او ذاك ، دون مناقشة اسراره وتعاليمه والبحث فى خفاياه لانه من العسير على العقل الواعى والوجدان المتحرر والضمير اليقظ والالهام الفطرى أن يطمئن لدين أو مبدأ يجبر معتنقيه على الايمان به ، وذلك يخالف ما فطر عليــه الانســان من حرية التفكير والبحث فى كنه ما يدرى وما لا يدرى وما يريد أن يدرى .

وقد تطرأ على الانسان الرغبة الملحة التى تبلغ به حد التطفل ، فيسترق السمع فى غفلة من دينه الذى ولد وشب عليه ، الى صــدى دعوة تدعو الى دين آخر ، فاذا به قد وجد ضالته المنشودة ، واصــاب الهدف الذى يبحث عنه والغــاية التى كان يحلم بامل الوصــول اليها بشتى الوسائل ، فياخذ الدين الذى وافق هواه ، وحل جميع المســائل التى تكون قد اضمحلت قيمتها امام الحاح الفطرة التى تدفع الانســان للصراع الفكرى ، فيضطر الى دراســة خفايا هذا الدين والبحث عن مدى جدية الدعوة الجديدة ، ومدى مقدرتها على موافقــة الهوى الذى يكون قد استبد بذلك الانســان الذى يريد أن يسير وراء عقله الفطرى

حرا طليقـا ، دون النظـر الى الابوة أو العشـيرة او الاموال التى اعترضته ، وعالج جميع ما صـادفه من مشـاكل ووضع حـدا دنعا قويا للبحث عن الحقائق .

وكلما كانت الحقيقة التى يدعى الانسـان الى الايمان بها سلسلة واضحة لا تعقيد فيها ولا تكليف ، ولا اكراه ، تحمل فى ظاهرها وباطنها ما يتفق والفطرة البشرية التى فطر الله عليها خلقـه ، كانت حقيقـة غنية بوسائل الدعوة لنفسـها ولمبادئها ، ويتهافت الناس على الايمـان بها ، لانها لا تحتـاج الى دعاة يستعملون أسـاليب الكياسـة والفطنة المدعمة بمعسـول الالفاظ والمنطق الخـلاب حتى يجرون اليها المعتنقين اليها جرا ، ويجذبون المؤمنين اليها جذبا ، وذلك لان الحقائق ليست بضاعة تتعلق بمطالب الجسـد الترابى ، انما هى مطلب الروح والعقل ، والروح والعقل يبغيـان وينشـدان الحقائق الواضحة التى لا التواء فيها ولا دوران .

ومؤلف هذا الكتاب صـادفته الحالات الثلاث ، ودار فى فلكهـا ، واصطلى فى اتون الفكر ردحا من شـبابه ، فقد ولد على دينه من اديان اهل الكتاب ، ونشأ يقلد ابويه مترسما خطى اجداده ، مؤديا طقوسهم وشعائرهم ، حتى بلغ اشـده ونال حظـا من علم الدنيا ، وجه الى تعلم اسرار دينه ، ثم دفع به فى هذا المضمار وزج به فى طريق ينتهى به ان يكون دعامة من دعائم الدعوة لهذا الدين ، ورب قائدا من قادته .

وقادتنى الدراسـة الى اصاخة السمع الى عدة نداءات ، وصلت الى سمعى نتيجة النفرات التى اوجدتها الريبـة والشك فيما لم يستطع العقل قبوله ، وما لم يطمئن اليه الضمير لحظـة الطهر الوجدانى ، مما أدرسـه او ما اعد لتحمله من المهام ، فكان لتلك النداءات حظ من الانصات الذى اعقبـه التفكير فى الاديان السابقة على دينى ، فكنت كالمستجير من الومضاء بالنـار ، حيث وجدت بعـد التمحيص ان اغلال دينى اخف وطاة من قيود ما سبقه من الاديان ، من نواحى التكليف والاكراه والارغام ، نتيجة الطغيان الكهنوتى والكنسى .

وبعد ان اكملت دراستى ، ولم اكن قد اصبت ما رمت اليه ، وما أتعبنى الكد فى البحث عنه ، تحولت الى البحث فى الدين الاسـلامى ، وفى هذه المرة لم تكن بغيتى الفرار من دينى ، ولكن كان قصـدى من البحث فى الاسـلام استخراج العيوب وتلمس الاخطـاء والوقوف على المتناقضـات ، التى اوحى الى بها من اساتذتى واهلى ، ولكن ما كدت اطرق الباب وامسك باول الخيط ، حتى دخلت باب المقارنة بين ذلك

الدين وما سبقه من اديان وخرجت من تلك المقارنة وقد استولى على سحر الحقيقة الناصعة والمبادىء الوضاءة ، والتعاليم الصريحة ، لا اعوجاج فيها ولا التواء ولا سلطان لكاهن ، ولا سلطة لكنيسة ولا طغيان لاحبار .

وجدت لكل سؤال جوابا شافيا ، ووجدت فصل الخطاب فيما لم يستطع اى دين سابق ، سواء كان وضعيا او منحدرا من الاديان السماوية او مبدا من المبادىء الفلسفية ، وقولى منحدرا يرجع الى انحدار الديانات على يد رجال الدين الذين خرجوا بها عما جاءت من اجله ، ما لم يستطع كل هؤلاء أن يعطونى جوابا عنه فيه اقناع او اقتناع ، وجدت أن ما زعموه فى الاسلام عيوبا مزايا ، وما ظنوه متناقضات حكما وأحكاما وشرائع فصلت لاولى الالباب ، وان ما عابوه على الاسلام كان علاجا للبشرية التى طالما ترددت فى بيداء الظلمات ، حتى اخرجها الاسلام من الظلمات الى النور ، وهدى الناس باذن ربهم الى صراط مستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين ضلوا واضلوا ودخلوا بالناس ابوابا من الكفر والشرك والالحاد ، وجدت الاسلام قد اخرج اسرابا من شبه الجزيرة عاشوا فى بيداء الشرك والوثنية الى التوحيد الخالص ، دون اصطدام مع الفطرة او واقع الحياة والطبيعة البشرية ، مما جعل الاسلام يأخذ بلبى ويقبض على لبابتى ، ومن واضح أحكامه ونور تعاليمه وصدق رسالته حملنى على الايمان به والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فانقدت اليه دون اكراه أو ضغط أو اغراء ، ولكنى آمنت به عن تعقل وتفكر ودراسة وتمحيص وتطلع ومراجعة وبحث والحمد لله الذى انعم على بنعمة الايمان بدين قال الله فى حقه : « ان الدين عند الله الاسلام » وحيث ان من لم يؤمن بالاسلام فقد خسر دينه ودنياه وحرمت عليه الجنة فى اخراه « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله » ، « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

واعترافا بنعمة الله على وتفضله بأن هدانى للايمان ، وبعد ان حاولت جهد استطاعتى وان كان الجهد جهد المقل ان ارد بعض الجميل لله بتوضيح ما علمنى اياه فى هذا الكتاب ، اردت ان اختم هذا الكتاب بموجز ابين فيه طبيعة الاسلام المبنية على حرية الفكر وتحرر الوجدان والمتفقة مع ما تنادى به فطرة الانسان المتحرر من القيود والاغلال ،

قبلى ان تطغى على عقله القوى المادية او الجهالة الفكرية او القيادة الدينية ، او السلطة الكنسية .

ان طبيعة الاسلام تدعو الى التوحيد الخالص .

« قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا احد » سورة الاخلاص .

ولا تدعو الى تأليه لبشر ، ولا نسبة بنوة النبى الى الله .

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » سورة الكهف .

واعطت الانسان مركزه الحقيقى وحريته فيما يختار لنفسه من سعادة فى الدنيا والآخرة ، أو من شقاوة يوم لا تغنيه فيه دنياه عن آخرته .

« بل الانسان على نفسه بصيرة » سورة القيامة .

وقد أحاط الاسلام الانسان بالعلم حتى لا يقع فى الشرك الذى وقع فيه غيره ، ورسم له الطريق الذى يسير عليه وارسل له النبى ومعه كتاب انزل عليه من ربه يحمل بين ضفتيه تبيان كل شىء ، ما رأى خيرا الا وامر به ، وما رأى شرا الا ونهر الناس عنه .

« الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » سورة البقرة آية ١ ، ٢ .

« حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوميعلمون » سورة فصلت من ١ — ٣ .

وهيأ للانسان أسباب الحياة لكى يعيش فى دنياه متمتعا بزينة الله مع العمل للآخرة لا رهبانية ولا عكوف فى الصوامع ، انما ليعيش راهب الليل فارس النهار .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض » سورة القصص آية ٧٧ .

الاسلام بطبيعته وضع المجتمع فى الاهداف الاولى التى هدف اليها فقرر رباط الاسرة ونظام المجتمع ، كما قرر المساواة الانسانية والمساواة الاقتصادية ومنح معتنقيه الحرية بشتى انواعها ، سواء كانت حرية فكرية ، او حرية سياسية ، او حرية مدنية ، او حرية دينية ، وترك للمسلم حرية مناقشة دينه ، وذلك ثقة من ان المسلم كلما تبحر فى علوم الاسلام ، كلما تمسك به وازداد ايمانا .

واخيرا اقول قد رجحت كفة
العمل بمبادئه ، وصدق الله العظي

« اليوم اكملت لكم دينكم واتـ
دينا » سورة المائدة آية ٣ .

وفى الختـــام ندعو الله ان
رسوله الامين .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هـ
انت الوهاب » سورة آل عمران آية

« ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلـ
لا تخلف الميعاد » سورة آل عمران آيـ

قبلى ان تطغى على عقله القوى المادي
الدينية ، او السلطة الكنسية .

ان طبيعة الاسـلام تدعو الى ال

« قل هو الله احد ، الله الصمد
كفوا احد » سورة الاخلاص .

ولا تدعو الى تأليه لبشر ، ولا

« قل انما أنا بشر مثلكم يو
سورة الكهف .

واعطت الانسان مركزه الد
سعادة فى الدنيا والآخرة ، او من

« بل الانسان على نفســ

وقد احاط الاســلام الا
وقع فيه غيره ، ورسم له الط
ومعه كتاب انزل عليه من ربه ،
خيرا الا وأمر به ، وما رأى شر

« الم ، ذلك الكتاب لا ر
آية ١ ، ٢ .

« حم ، تنزيل من الرحمن
لقوميعلمون » سورة فصلت م

وهيأ للانسان اســباب ا
الله مع العمل للآخرة لا رهبا
راهب الليل فارس النهار

« وابتغ فيما آتاك ا
واحسن كما احسن الله
القصص آية ٧٧ .

الاسلام بطبيعته وض
فقرر رباط الاسرة ونظام ا
الاقتصادية ومنح معتنقيه ا
فكرية ، او حرية سياسية
للمسلم حرية مناقشـــة دينه
الاسلام ، كلما تمســك به

١٥٥٣٩